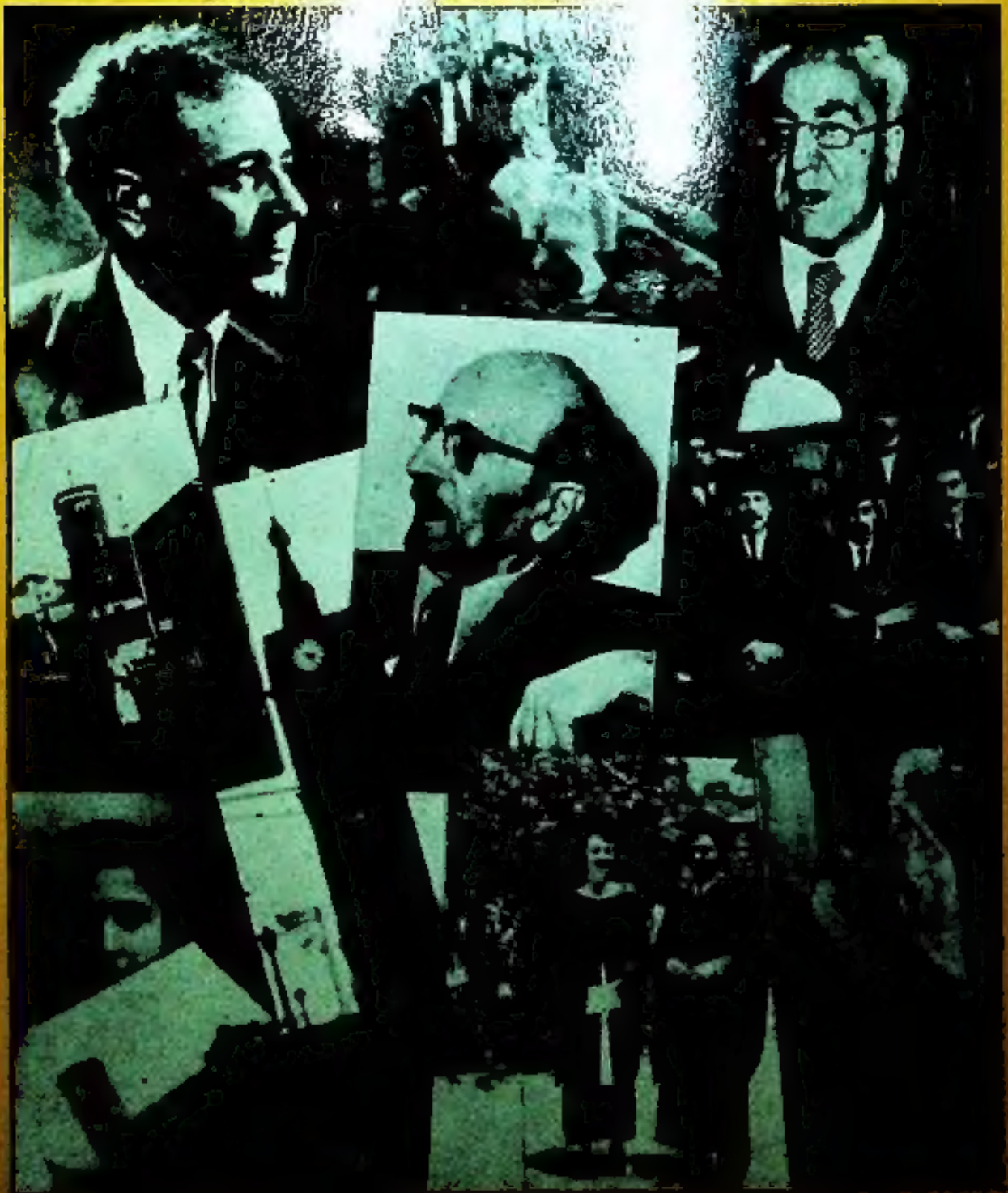


هشام شرابي

صُورُ المَاضِي

إلى ذاك



الى الدكتور جبرج زياتي

مع التقدير والاحترام
التحيات لرحلات
جديدة مبدعة

م/بان

بيروت في ٢٨/٦/١٩٩٢

صُورُ الْمَاضِي

لِلْأَمِينِ

هشام شرايبي

صُورُ المَكَاظِي

سيرة ذاتية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دارنلسن



جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

دارنلسن - السويد

الطبعة الأولى

بيروت ١٩٩٣

التوزيع



بيت الحكمة

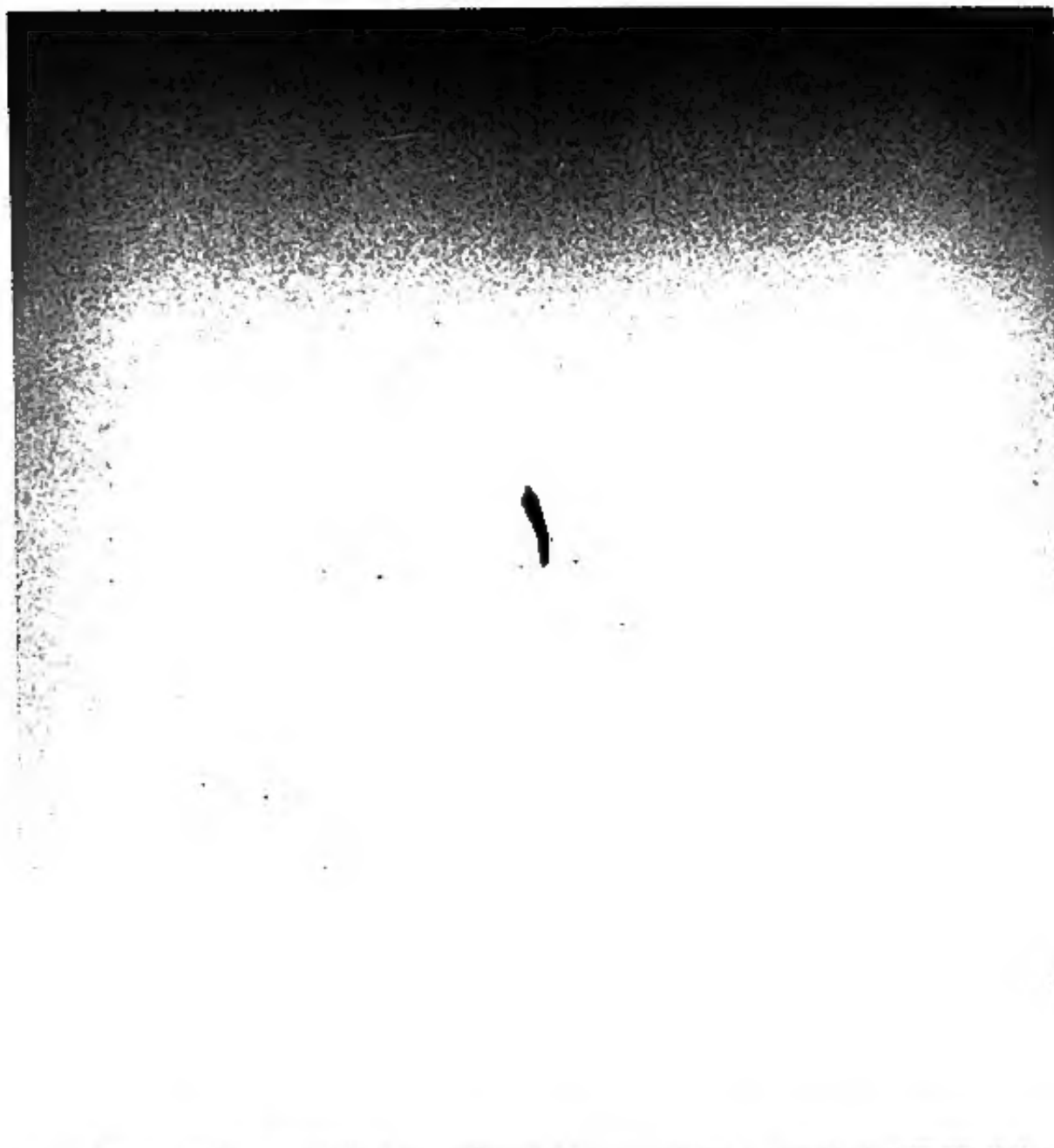
ع.ب. ٥٢٦١ - ١٣ - مكاتف : ٣٥١٢٦٩

بيروت - لبنان

شُكْر

أود ان اسجل شكري وتقديري الى الاصدقاء الذين ساهموا بشكل او بآخر في اخراج هذا الكتاب، وبخاصة محمود شريح، ويوسف سلامه، وسليمان بختي، وبير ديب، والى الذين زودوني بالوثائق والصور التي تكون جزءاً مركزياً في هذه السيرة، وبخاصة بدر الحاج، وتانيا ناصر، ودينا ابو داية، وسائدة الشوا، وصالح ترجان، وسمير الصليبي، والمركز العربي للمعلومات.

إلى أدونيس وخالدة
وإلى ياسين



يرن جرس الهاتف فأرفع السّاعة. مخابرة كنتُ بانتظارها.
طبيبي وصديقي سعيد كرمي ينقل اليّ نتيجة الفحوص التي
أجريت لي في غدّة البروستات.

”لا تشغل بالك. انما هناك بدء سرطان في الغدة. ويجب
اجراء فحوص للتأكد من ان السرطان لم ينتشر في أنحاء الجسم.“
يضيف: ”حددت لك موعداً في المستشفى في الساعة الثامنة
من صباح الغد لاجراء الفحوص.“

أحس بهدوء غريب يغمرنى، كالشعور الذي يسبق فقدان
الوعي عند تلقي ضربة مفاجئة على الرأس. أضع السّاعة وأطفيء
النور. أحدث نفسي، يجب ألا أفقد أعصابي. كم من مرة فكرت بلحظة
ك هذه، وكيف سأجابهها عندما تأتي. ها هي الان تأخذني على حين غرة.
كنت واثقاً اني لست مصاباً بأي مرض. ظننت ان الفحوص روتينية.
منذ سنوات لم اشعر بالصحة والنشاط اللذين اشعر بهما الان.

لا انقل فحوى المخابره بكاملها لزوجتي، لكنها تدرك ان النتيجة سيئة وتلوذ بالصمت. الجأ الى الفراش باكراً. اعرف اني سأستيقظ في الليل، كما افعل عندما اكبت ما يقلقني، فيضطرب قلبي خوفاً من تلك الساعة. انام نوماً منقطعاً مليئاً بالأحلام المفزعة. استيقظ. انظر الى ارقام الساعة المتوهجة الى جانب السرير: منتصف الليل الا بضعة دقائق.

أتمدد على ظهري وأغمض عيني. اسمع صوت سياره مسرعة في الشارع المحادي. يطفو السؤال الذي كبته الى سطح الوعي اذا انتشر السرطان في اطراف الجسم ودخل في العظم، ما الذي سأفعله؟ اسمع دقائق قلبي. امنع نفسي عن التفكير. استعيد أحداث فيلم شاهدته منذ بضعة ايام. اركز على بعض المشاهد وأتابعها بدقة. دون جدوى، فالسؤال يلح عليّ. آخذ في التنفس العميق المنتظم واعدّ النفس بعد النفس أكثر ما يرعني تفكّك الأنا، والالم. لا تُرد كلمة الموت في ذهني.

لا اريد ان يدري احداً مرضي. لا اريد عطف الآخرين وشفقتهم. لا احد يستطيع مساعدتي. في مرض كهذا لا يستطيع مشاركتي الشعور حتى اقرب الناس اليّ. اتذكر قصة نولستوي. قرأتها للمرة الثالثة او الرابعة منذ بضعة اشهر. الى جانب ايفان اليتش عند مرضه لا يبقى الا خادمه العجوز. زوجته وابناؤه واصدقاؤه يزورونه. يسكون بيده، بحادثته، يطمثونه، ثم ينصرفون الى اعمالهم. فقط الخادم العجوز يبقى جالساً الى جانبه يدلك ساقيه عندما يشتد عليه الالم ويساعده على الانتقال الى جانبه عندما يتحجّر ظهره، او الجلوس في الفراش عندما لا يستطيع النوم. حديث زوجته واولاده في غرفة الطعام يتهادى الى سمعه. يسمع وقع خطاهم في أنحاء البيت وصوت باب البيت يفتح ويغلق عندما

يخرجون وعندما يدخلون. اصداقاه الذين يأتون لزيارته ينظرون اليه بفضول واضح، يريدون التأكد كيف غيره المرض. يشعرون بارتياح لانهم ما زالوا أصحاء ويفادرون غرفة المريض وقد غمرهم هناء غامض لا يعرفون مصدره.

افكر بكير كجارد. الخوف من الموت تحكّم بحياته كلّها. ولكنه كان خَوْفاً دينياً كان يريد الخلاص بواسطة ايمان رفضه عقله. جميعنا نعمل ذلك بصورة او بأخرى. ندرك اننا سنموت، لكننا نتحرّل عن الحقيقة المفرعة الى "الايمان" او المقولات المتداولة والكلمات الشائعة. نشهد موت الآخرين، اما موتنا نحن فلا نراه، ندفع به قدماً الى مستقبل مجهول لن يأتي.

افكر بصديقي الـ نايلر. حارب الذعر الذي تملكه بالتشديد على ان السرطان في رتبته كان محدوداً وسيتم استئصاله بسهولة. وعندما كشف الفحص انه امتدّ الى الرأس، اخبرني ان الطبيب طمأنه بان الامتداد لا يتعدّى "سبع نقاط صغيرة" في المكان الذي كان متوقّعا ان توجد فيه وان استئصالها بالاشعة سيكون سهلاً وسريعاً. كان يردّد لي ان من حسن طالعهِ انه قدم الى مستشفى جورجيتاون الذي يعتبر من اكثر مستشفيات اميركا تقدّماً في معالجة السرطان. في الأيام الأولى كان يحاول اقناع نفسه واقناعي انه في سلامة ولا خطر حقيقياً يهدّد حياته. كان في اللحظة التي ادخل فيها غرفته يبدأ في الكلام ولا يتوقّف الى ان اقاطعه او عندما تنتهي الزيارة. ما ان خضع لمعالجة كيميائية حتى عاد الى البيت مطمئناً. الا ان اطمئنانه تبخر لدى ظهور العوارض الجانبية التي تنتج عن تلك المعالجة: نزيف في اللثة، وتساقط الشعر، وانخفاض عدد الكريات البيضاء، وارتفاع الحرارة، مما ألقي به ثانية في أحضان دُعر رهيب. عندما زرته ثانية في المستشفى اخبرني انه كان منهار

الاعصاب يبكي كالأطفال. الا انه سرعان ما استعاد ثقته واقنع نفسه بأنه سيشفى عاجلاً.

اني الان في الوضع الذي كان فيه. اتفهم تماماً محاولة الغاء الامر الراهن واستبداله بآخر زال منه الخطر. رغبتى الآن ان استيقظ وأجد نفسي في حلم مزعج لا أكثر.

اغفو عند مطلع الفجر، ثم استيقظ ثانية. يبذد اطراف الظلام ضوءاً خافت يتسلل من وراء ستار النافذة. اسمع صياح صرّار الليل، والدنيا آخر الخريف، مُدركاً دنو أجله.

انا الان عند "لحظة الحقيقة" كما يقولون بالانكليزية، اجابه روبرت مصيري لوحدي.

اقوم الى الحمام. انظر في المرآة، يفزعني منظر الخوف في العينين اللتين تطلّان عليّ. اعود الى الفراش، وأخذ ثانية في التنفس العميق المنتظم.

٢

كيف وصلت الى هنا، الى ما أنا فيه؟

بريئة كانت البداية، لا تدعو الى القلق.

أثناء الفحص الطبي الذي نخضع له في الجامعة في مطلع كل سنة دراسية، لحظ الطبيب منذ سنة تحجراً في غدة البروستات، ونصحني بفحصها عند الطبيب المختص. إتصل بدائرة الأمراض البولية في مستشفى الجامعة وحدد لي موعداً مع الدكتور لينش رئيس الدائرة.

قال الدكتور لينش، بعد ان فحصني، ان هناك تحجراً في

البروستات وبصح باستئصال عينة للتأكد من اسباب التحجر. قال ان العملية بسيطة ولا تستدعي بقائي في المستشفى اكثر من بضع ساعات. لم يذكر ان العملية وعلى "بساطتها" قد تؤدي احياناً الى مضاعفات خطيرة.

تمت العملية حسب البرنامج. تناولت المخدر بواسطة انبوب غرس في شريان ذراعي الأيسر، ولم احس بشيء الى ان استيقظت على صوت زوجتي تحدثني. قالت اني تمت ساعة بعد انتهاء العملية وان كل شيء سار على ما يرام وستظهر النتيجة غداً. ارتديت ثيابي وخرجنا من المستشفى، وانا لا اشعر الا بقليل من الثقل في رجلي وبصداع في رأسي. في البيت تمددت لارتاح قليلاً وب لبث ان استغرقت في نوم عميق. استيقظت والعرق يتصبب من جبيني. وضعت زوجتي ميزان في فمي: الواحدة والاربعون. اتصلت رأساً بالطبيب. قال: "احضره الى الطوارئ."

حدث تسمم في ادم من جراء العملية. بقيت في المستشفى اربعة ايام. اخبرني صديقي الطبيب زياد ديب فيما بعد ان حياتي كانت في خطر في اليومين الأولين في المستشفى.

في مساء اليوم الاول شعرت بتحسن بسبب دواء الانتبيوتيك الذي اعطاني لي باستمرار بواسطة المصل في ذراعي. قبل النوم قالت الممرضة وهي تاولني حبتين من الاسبرين: "ستزول الحرارة وستنام براحة."

استيقظت بعد منتصف الليل ارتجف برداً وبالوقت ذاته كنت اتلوى من نار مُحرقة في عروقي. مددت يدي في الظلمة افترش عن الضوء على المنصة بجانب السرير، فارتطمت يدي بكوب الماء ووقع أرضاً فانكسر. اتت الممرضة راكضة. صحت: "اني احترق، اني ارتجف." اخذت حرارتي وضغط الدم ثم هرعت تنادي الطبيب.

كنت في حالة هذين. احاول التنفس فلا استطيع. كلما آخذ نفساً اشعر وكأن رثتي تلتهبان في صدري. أحسّ بأني اغرق، وعلى وشك ان أختنق. ارى وجوهاً وصوراً، واسمع لفظاً وهديرًا. لا ادري ان كان قد اغمي عليّ. عندما أفتح عيني ارى وجه الطبيب فوقى واحسّ بكيس ثلج وُضع على رأسي وبغطاء صوف يلف جسدي.

اعود الى الوعي رويداً رويداً. انطلق حولي وادرك اين انا. يسألني الطبيب ان كنت اشعر بتحسن. اهزّ برأسي ايجاباً. ارى ضوء الفجر الشاحب من وراء الستائر. يقوم الطبيب ويتحدث الى الممرضة بصوت خافت ثم يغادر الغرفة. ترفع الممرضة كيس الثلج عن رأسي وتستبدل البطانية بغطاء اخف، ثم تطفىء النور. وانام نوماً عميقاً.

٣

في مساء اليوم التالي تقول الممرضة: "اذا لم ترتفع حرارتك الليلة فستغادر المستشفى غداً." طيلة النهار بقيت الحرارة اعتيادية. زارني قبل الظهر الطبيب الذي اجرى عملية استئصال العينة واخبرني ان النتيجة كانت سلبية مع أنّ هناك تضخماً في غدة البروستات. واخبرني ان تسمّم الدم حدث نادر، يحصل لأقل من ثلاثة من كل مئة تجرى لهم هذه العملية. أضاف قائلاً: "من سوء حظك ان تكون واحداً من هؤلاء."

عدم وجود مرض في الغدة جعلني انسى عذابي في الليلة السابقة. ألم الجسد نساه حالما يتوقف. جلست في فراشي اقرأ

واستمع الى الراديو طيلة النهار في حالة نفسية جيدة.
في المساء، بعد ان ابتلعت حبة النوم، استلقيت على السرير استعداداً للنوم. شعرت بصداخ خفيف كالذي احسست به في مثل هذا الوقت في الليلة السابقة. لم اعره اهتماماً واغمضت عيني ونمت نوماً منقطعاً.

استفقت على صراخ عال. فتحت عيني ووجدت اني مصدر الصراخ. كنتُ أتصَبَّب عرقاً وارْتَجَفُ برداً، تماماً كما حدث لي في الليلة السابقة. كنت لا استطيع التنفس. شعرت انني اختنق. جاءت الممرضة وامسكت بي لتمنعني من النهوض. دفعتني بقوة الى الفراش ونادت رميلتها المداومة في القسم المجاور، وهرعت تنادي الطبيب. صحت بالعربية: "اني اختنق." سمعت صوت الطبيب من بعيد: "ماذا تقول؟ احبرني ماذا تقول؟" شعرت بالممرضة ترفع رأسي وتضع حَبَّتِي دواء بين شفتي وتناولني كأساً من الماء وتقول: "ابلع. ابلع." في الوقت ذاته كان الطبيب يضع انبوباً في مدخل بدني ويقول للممرضة: "حالته لا تدعو الى القلق." غت عن الوعي، ولم استيقظ الا عندما فتحت الممرضة ستائر النافذة وامتلأت الغرفة بضوء يوم جديد.

بعد افطار الصباح شعرت بالقوة تسري في عروقي وسرعان ما عدت الى حالتي الطبيعية. اخبرني الطبيب ان التسمم في الدم انتهى وأن الخطر زال. الا انه يتوجب عليّ البقاء في المستشفى يومين آخرين ليتم مفعول الدواء.

اخبرت زوجتي بما قاله الطبيب وطلبت اليها ان تمنع عني الزيارات. كان خبر وحوذي في المستشفى قد بدأ بالتسرب، فاتصل بعض الاصدقاء والاصدقاء ليطمئنوا عليّ.

قضيت اليومين الباقيين في سكون ووحدة. انخفضت درجة

لحرارة. طلبت من الممرضة ان تزيج الستائر كلياً عن النافذة لأتمكن من رؤية الأشجار والسماء. لم اقرأ ولم أكتب خلال يومين كاملين. كنت تعباً ولكن في صفاء ذهني تام، انظر الى الاشجار تتهايل في زرقة السماء وافكر واتذكر وأحلم.



كلما اقتربنا من المرحلة الاخيرة من حياتنا يزداد تذكرنا للمرضي، فيتقلص المستقبل اذ يزداد تجاهلنا له، لا لعدم اهتمامنا به بل لخوفنا على نفاذه. فأنا بتجاهل المستقبل نرغب في تثبيته على الشكل الذي أردناه طيلة حياتنا، امتداداً لا نهاية له، يحقق لنا اهدافنا واحلامنا. هكذا يبقى المستقبل الى ان نستفيق عند شمس المغيب.

كنت في هذه السنوات اذكر نفسي بين الفينة والاخرى بان المرحلة الاخيرة تقف على الابواب، وأنه يجب التوقف والتفكير. غير اني لم اتوقف ولم افكر، إذ بقيت على اشغالي. وفجأة وجدت نفسي تجاوزت منتصف السنين من عمري.

لا اريد ان يساء فهمي. لا اخاف من هذه المرحلة الاخيرة من العمر. هناك الكثير من المؤنس والجميل فيها، كالتحرر من عبوديه المستقبل، ومن رغبات الجسد وشهوة الشهرة وجاه المركز. لكن اجمل ما فيها هو العودة الى النفس، وتأطير الحياة في ماضٍ امتلكه. من هنا الرغبة الجارفة في العودة الى الماضي وتقصي معالم الحياة التي عشت معظمها في غفلة عن نفسي.

غادرت البلاد سنة ١٩٤٧ وأنا في العشرين من عمري ولم تكن الهجرة هدفي، فأنا لم "هاجر" الا بعد عودتي ثانية الى اميركا سنة ١٩٤٩ إثر اعدام انطون سعادته والقضاء على الحزب السوري القومي الاجتماعي. أكاد لا اصدق الآن اني لم امض فوق أرض وطني سوى عشرين عاماً من حياتي. لو بقيت فيه لكنت اغلب الطن دخلت السجن او قتلت او في احسن الاحوال أبعدت عنه بعد عذاب طويل، كما حدث للعديد من أبناء حيلي المثقفين. كان من المستحيل لمن التحق بحزب والتزم بعقيدة ان يعيش حياة طبيعية. طريق الحزب السوري القومي الاجتماعي كانت باتجاه واحد: الانتصار (امتلاك السلطة) او الاندثار. من هنا كانت لغة انطون سعادته التي سحرتنا، لا تعرف المساومة ولا تقبل الا الصيغة المطلقة. كم مرة في الاشهر الستة الاخيرة قبل اعلانه "الثورة القومية الاجتماعية الاولى" سمعت سعادته يعلن في الاجتماعات الحزبية ان ساعة الحسم قد قربت.

سنة ١٩٤٩ غادرت البلاد، لكنني فعلياً لم هاجر. الهجرة تعني الاقتلاع وبدء حياة جديدة. الا اني لم اقتلع من وطني ولم ابدأ حياة جديدة في وطن غيره. بقيت جذوري مغروسة في ارض كنت بعيداً عنها.

الى هذا اليوم ما زلت غريباً في هذا البلد الذي قضيت فيه الجزء الأكبر من حياتي. في صباح كل يوم في الصيف والخريف اجلس في الشرفة المطلّة على حديقتنا الصغيرة، أشم عير الورد الذي زرعتة زوجتي حسب طلبي. أغمض عيني ويخيّل اليّ اني انتشق عير الورد في عكا. وعندما التقط ورق الصعتر الاخضر، الذي زرعتة من

اجلي، وافركه بين اصابعي واشم رائحته ارى نفسي في جبال لبنان عند سوق الغرب وعاليه. وعندما تقدم لي زوجتي عنب آحر الموسم اذكر طعم عنب رام الله الذهبي الذي كان يقدم البنا عند عودتنا الى مدرسة الفرندز في اول الخريف. وفي الصيف، على شاطئ البحر في فيرجينيا، يتحول كل ما يحيط بي، ماء البحر ورمال الشاطئ والافق البعيد والهواء المشبع برائحة البحر، الى صور وأحاسيس تذكّرني بشاطئ يافا وعكا وبيروت. الواقع الذي عشته هنا لأكثر من اربعين سنة ما زال عاجزاً عن امتلاكي. اني كيمسافر يملأ الحنين قلبه منذ اللحظة التي يغيب فيها ساحل بلاده عن ناظريه، ويعيش محكوماً بالآني والماضي، حقائقه دائماً معدّة، ينتظر ساعة العودة.

٦

كانت هجرتي قسرية، كما عبر انطون سعاده عن هجرته، ولا زالت. حاولت العودة وخططت لها لسنوات. اتخذت الخطوة الخامسة سنة ١٩٧٤، عندما بدأت ببناء بيت صغير في قرية المشرف المطلّة على مدينة الدامور على الساحل جنوبي بيروت (حيث لا يزال اساسه قائماً). كنت على وشك ان اقدم استقالتني من جامعة جورجيتاون عندما انفجرت الحرب الاهلية في لبنان في ربيع ١٩٧٥. هذا الارتباط بالوطن يعود بالدرجة الاولى الى ارتباطي بأنطون سعاده والحزب. غير الحزب السوري القومي الاجتماعي معنى كلمة "حزب" جذرياً في المشرق العربي، من المفهوم التقليدي للحزب الى مفهوم الحركة القومية الاجتماعية الشاملة. من مفهوم عتيق يقوم على شعارات الابوية التقليدية الى مفهوم حديث يقوم على العقلانية

والالتزام الهادف. وكان التحاقني به امرأ مقدراً. بديلي الوحيد كان الحزب الشيوعي. غير اني في تلك الفترة لم اكن اعرف عن كارل ماركس والشيوعية الا ما كانت تتداوله الالسن، ومعظمها كانت جاهلة كليهما.

تجسد الأثر الأكبر للحزب في المثالية التي زرعتها في نفسي الرؤية القومية الاجتماعية. فاتجهت حياتي منذ ذلك الحين نحو العمل القومي والاجتماعي. م يحظر يباي يوماً ان اكرّس حياتي للربح الخاص او ان اضع مصلحتي الشخصية هدفاً اعلى في الحياة. اقول هذا لا تنجحاً بل لأصف ما حكم توجه حياة عاشها الكثيرون من افراد جيلي الذين التحقوا بالاحزاب والحركات السياسية في جميع انحاء العالم العربي في الاربعينات والخمسينات.

وفي حين حرمني اغترابي من العيش في وطني، الا انه زاد من شاطي في تحقيق ما كنت لا اقدر على تحقيقه لو بقيت فوق أرضه. في الولايات المتحدة انممت دراسي العليا وحصلت على الدكتوراه خلال سنوات فينه، وتمكنت من ان أصبح استاداً جامعياً في احدى كبرى الجامعات الاميركية. بهذا كنت بين المحظوظين من المثقفين العرب الذين تمكنوا من الافلات باكراً من ريق الثقافة الابوية وانظمتها السياسية، واصدار بحوث ودراسات دون خوف من سلطة او رقابة فكرية.

في مساء اليوم الثالث تقول لي الممرضة: "ستنام هذه الليلة مرتاحاً. الحرارة زالت ولن ترتفع مرة أخرى."

لم ترتفع الحرارة، لكنني لم انم طويلاً. استيقظت قبل الفجر، في الوقت نفسه الذي كنت اتعرض فيه في الليلتين السابقتين لهجمات الحرارة والرجفان. لكنني كنت الان في حالة طبيعية ووعي واضح. منذ طفولتي أحب القراءة. ولعت بالقصص في روضة الاطفال عند مس باين في يافا. ثم في مدرسة الفرندز على يد الاستاذ فرج وكان من غزة. وفي المدرسة الاستعدادية في بيروت اصحت قراءة الكتب واقتناؤها هويتي الكبرى. كنت كل يوم اثنين، في صف استاذ اللغة العربية موسى سليمان، قدم بمبادرة مني مراجعة لكتاب قرأته في عطلة الاسبوع. كنت اكتب المراجعة في دفتر خاص، اتناول فيها محتوى الكتاب واقيمه وانقده. احياناً كان موسى سليمان يقرأ ما كتبت ويثني علي. بعد سنوات قليلة اصبح لدي مجموعة من الكتب تُشكّل مكتبة صغيرة حفظت قسماً منها في يافا والقسم الآخر ابقيته في عمكا، وكانت اعز ما املك.

كان من المحتم بعد تخرجي من الجامعة الاميركية السفر الى الخارج. الثقافة الاجنبية التي تعرفت اليها بدءاً بروضة الاطفال دفعني نحو الدراسة في اوروبا او اميركا. وحتى لو فضلت البقاء في العالم العربي لم يكن فيه آنذاك جامعة واحدة تمنح شهادة الدكتوراه في اي من الحقول الدراسية، ربما باستثناء الجامعة المصرية في حفل الادب.

لم امارس الكتابة والنشر باللغة العربية بعد غربتي الا فيما ندر. كنت، مثل غيري من المثقفين العرب الذين درسوا في الخارج، اعتبر الكتابة بالعربية في منزلة هي دون الكتابة باللغة الانكليزية او الفرنسية. لم يكن هناك مقياس او قاعدة لتقييم الانتاج الفكري او الادبي في العالم العربي. الاديب او المفكر "المعروف" هو الذي يكتب وينشر بكثرة، فيتحدث عنه المثقفون والادباء. اما التحليل والنقد

فلم يكن لهما وجود بالمعنى الدقيق، واقتصرت الكتابة النقدية على المديح أو الهجاء أو، في أحسن الحالات، على الوصف والعرض المملين. من هنا كانت نظرة المثقفين العرب "الغربيين" إلى الكتاب والباحثين باللغة العربية نظرة تعالي واستخفاف، فيما كانت نظرة احترام وخشوع إلى الكتاب والمفكرين الغربيين.

يمكن تصنيف المثقفين العرب في الغرب إلى نوعين. أولئك الذين ولدوا في الغرب أو نشأوا فيه منذ الصغر وأصبحوا يجيدون إحدى لغاته كما يجيدها أبناؤه ويشعرون بانتماء اجتماعي ونفسي إليه، وأولئك الذين "هاجروا" إلى بلد غربي للدراسة أو لأسباب سياسية وأصبحوا يجيدون لغته دون امتلاكها كلياً، ويتفاعلون بعمق مع ثقافته دون الذوبان فيها. النوع الأول من المثقفين تفاعل مع المجتمع العربي من الخارج، من موقع لغته الأخرى وثقافتها، أي من موقع الكاتب الغربي أو المستشرق. في حين كان موقع النوع الثاني من المثقفين موقع الانتماء القومي والنفسي والالتزام الفعلي بقضايا المجتمع العربي. وكنت من أفراد الفريق الثاني.

ألا أفي مثل معظم المثقفين من كلا النوعين لم "أضح" من أجل وطني. عشت عيشة آمنة ومرضية على الصعيد الشخصي، إلا أن حياتي بقيت مليئة بالاحباط. وما زال سبب الاحباط الأكبر الذي أشعر به الآن، في نهاية حياتي الناشطة، هو عدم تمكني من العودة إلى وطني والتوصل إلى موقع أستطيع من خلاله المساهمة الفعالة في قضاياها بشكل أو بآخر.

اقتصر نشاطي في المجال القومي على "التدخل" من الخارج، وعلى الكتابة النقدية والممارسة النظرية. إثر اغتيال عدنان المالكي سنة ١٩٥٥ انتهت علاقتي بالحزب السوري القومي الاجتماعي، فلم تعد الرؤية إلا ذكرى. وبعد حرب ١٩٦٧ ونهوض المقاومة الفلسطينية،

التحقت بالعمل الفلسطيني، وانتقلت سنة ١٩٧٠ الى بيروت خصيصاً للعمل في مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية. وتبين لي خلال السنة التي قضيتها في بيروت ان العمل في المقاومة يتطلب اكثر من مجرد الالتزام بالقضية: انه يتطلب الانتباء الى احد فصائل حركة المقاومة، ويتطلب اكثر من ذلك الولاء الشخصي لاحدى القيادات والعمل تحت جناحها. لم اقطع علاقاتي بالمقاومة، غير اني بقيت خارج مراكز السلطة وصنع القرار فيها مثل الكثيرين من المثقفين الفلسطينيين الذين لم يلتحقوا بأحد التنظيمات.

في المجتمع العربي يريد المثقفون ايصال "الحقيقة" الى ذوي السلطة، وهؤلاء يرفضونها. فهم لا يريدون "حقيقة" المثقفين ولا فلسفتهم، بل ولاءهم الشخصي. هذا هو مسلك النظام الابوي وموقف القيادات الابوية. كان خطاي الاكبر اعتفادي ان الثورة الشاملة قادمة لا محالة، وان ازالة الانظمة العربية المهيمنة سيحدث عاجلاً او آجلاً، وسيقوم مكانها النظام العقلاني الحديث. وبقيت على هذا الفكر الطوباوي الذي زرع الحزب السوري القومي الاجتماعي بذوره في نفسي حتى اكتشافي ان النظام الابوي قادر، اذا لم يجابه مباشرة، على الوقوف بوجه كل ثورة واحباطها.

٨

في مادة "الفكر الاوروبي في القرن التاسع" حاضرت في الفكر الماركسي لعدة سنوات في جامعة جورجيتاون، من وراء حاجز ذهني مشبع بالعداء للشيرعية والماركسية غرسته في نفسي ثقافتني الليبرالية. ولم اخلص من هذا الموقف المعادي للماركسية الا في اواخر الستينات

عند قيام الحركة الطلابية، وكان لعدد من طلابي الراديكاليين دورٌ كبيرٌ في ذلك. أعدت آنذاك قراءة ماركس بشكل جذري وبخاصة نصوصه الأولى، مثل "المخطوطات الفلسفية" و"الأيدولوجية الألمانية"، ودخلت في تجربة فكرية كتلك التي رافقت قراءتي الأولى لكيركجارد في الجامعة الأميركية. ركز كيركجارد على أولوية التجربة الحياتية ورفض التجريدات الفكرية التي أقامها هيجل أساساً لفلسفته. لكن في حين تناول كيركجارد الفرد والحياة الفردية إطاراً نهائياً لتفكيره، عالج ماركس الفرد والوجود الفردي من ضمن حياة المجتمع ككل، ولخص موقفه في أطروحته الشهيرة: "حتى الآن قام الفلاسفة فقط بتفسير العالم بطرق مختلفة، لكن المهم الآن تغيير العالم."

ما كنت أسعى إليه هو تثبيت العلاقة بين الفكر والواقع الذي نعيشه أفراداً وجماعات. اكتشفت الآن عند قراءة ماركس في ضوء ثورة الستينات انه كان اقرب الى ما كنت ارمي اليه من كيركجارد الذي انحدر في الاخير باتجاه ديني لم أستسغه. الا انني لم "أؤمن" بالماركسية كعقيدة شاملة تفسر التاريخ والوجود، او كإيديولوجية حزبية على صعيد عالمي. إذ كانت الستالينية بالنسبة لي نظاماً فكرياً وسياسياً لا يمكن قبوله، وكانت الماركسية السوفيتية بعيدة كل البعد عن "ماركسية" مؤسسها كما تفهمتها من خلال نصوصه ومن خلال نصوص سارتر ولوكاش وغيرهم من الماركسيين الغربيين. ثم اني اكتشفت في الماركسية اسلوباً جديداً في منهجية المعرفة، أعني الاسلوب النقدي التحليلي. كان الاسلوب الوضعي الذي سرت عليه حتى ذلك الحين اسلوباً غلب فيه اتجاه الوصف والعرض على التحليل والنقد. فكان توجهي الفكري والنفسي دائماً هو السعي لمعرفة "الحقيقة" واعتناقها، لا الى تقصي جذور "الحقيقة" ونقدها

والكشف عما يكمن وراءها. وتعرّز ارتباطي بالاسلوب النقدي الماركسي لدى قراءتي الحديدة لفرويد في الوقت الذي أعدت فيه قراءة ماركس. ووجدتني منذ ذلك الحين أجمع بين الاتجاهين، الماركسي والفرويدي، في تحليلي للمجتمع العربي وللخطاب الابوي المهيمن عليه.

الا انني من جهة اخرى حابيت بعض الصعوبات النظرية في محاولتي تطبيق مقولات ماركس على واقع المجتمع العربي بسبب "اوروبية" فكر ماركس بتأثير هيجل وتركيزه على بنى النظام الرأسمالي الحديث كما نشأ في اوروبا الغربية في القرن التاسع عشر، وهذه بنى لم يقم مثلها في العالم العربي الذي ما زال حتى الان في مرحلة ما قبل الرأسمالية. ومن الاسئلة التي طرحتها آنذاك عن نفسي: ما هي المفاهيم الماركسية التي يمكن اعتمادها في تحليل المجتمعات الابوية السابقة للحدثة او المجتمعات التي هي على عتبة الحدثة؟ كيف يمكن لمجتمع تقليدي سابو للنظام الرأسمالي ان ينتقل من حالة الابوية الى حالة الحدثة وان يقيم نظاماً عقلانياً ويحقق العدالة الاجتماعية؟ ما هي العلاقة في المجتمع الابوي والابوي المستحدث بين القاعدة الاجتماعية الاقتصادية والنظام السياسي الايديولوجي الممثل بالقيم والعلاقات الابوية المتجسدة في مختلف الانظمة العربية، وكيف يمكن تغييرها؟

ما يعصني عليّ فهمه ليس الصعوبات النظرية في الفكر الماركسي الذي لا مهرب منه لعالم الاجتماع والمؤرخ والناقد احضاري، أو الاخطاء التي ارتكبتها الانظمة الاشتراكية في القرن العشرين، بل موقف المثقفين العرب من الماركسية والاشتراكية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة. لقد هللنا للماركسية والاشتراكية عندما كانت هذه هي الـ "موضة" الرائجة في الستينات، والآن نهلل

لنظام الديمقراطية والتعددية والسوق الحرة وحقوق الانسان!
تري ما سيكون موقفنا عندما نكتشف ان هذا النظام الجديد
ليس سوى النظام الرأسمالي القديم، باستغلاله الطبقي وديمقراطيته
الكاذبة وجشعه الاستعماري الذي قامت الاشتراكية لتغييره واستبداله
بالنظام الانساني العادل؟

٩

أنظرُ الى رؤوس الاشجار تتمايل وخلفها السماء الزرقاء ويعود
الي نغمُ كما نشده في المدرسة الاستعدادية في رأس بيروت: "نحن
الشباب لنا الغد ومجده المخلّد".
الغد لا نكتشف كذبه الا عندما يصبح امساً، عندما نتوقف
فجأة ونكتشف ان الزمن، زمناً، قد ولى. في تلك اللحظة يتوقف
تدفق الزمن. وفي ومضة خاطفة يعود الحاضر الذي مضى.
أنظر الى الأشجار والسماء التي حدّدها اطار النافذة: الاشياء،
خارج هذه اللحظة، رمادية غامضة كالغد الذي كنت اركض اليه.
فجأة ودون انذار يتدفق فيض الالوان، ك فيلم غير ملوّن يصبح
بلمحة بصر ملوّناً.
ادرك تمام الادراك ان هذه الصحوّة عابرة وان هذا الحضور لن
يستمر طويلاً.
تمر في ذهني افكار وصور استحضرها من غابر السنين. وجوه
لم ارها منذ الطفولة وكلمات غابت عن ذاكرتي منذ عقود، وكتابات
قرأتها وافكار استقرت في ذاكرتي. كلها تتدفق بوضوح مدهش.
اعمض عيني واحس بفرح جارف يغمرني.

استعيد ملامح الغريب المسنّ الذي شاهدت وجهه في المرأة هذا الصباح، ولا اشعر الآن بالأسى الذي ملأ قلبي. اشعر الآن بعطف نحوه. عادة لا نرى الا تلك الأنا الشابة التي نعيشها في داخلنا الى أن يأتي اليوم الذي نكتشف فيه دون ان نصدّق انها هي هذا المسنّ الذي ينظر إلينا من المرأة.

اذكر كلمات صديقي الشاعر ادونيس في رسالة احتفظ بها: "في شبابنا، نرى (أرى) الموت شاباً. في الشيخوخة، أراه شيخاً. تصوّر: الموت شيخاً! موتان في اللحظة الواحدة! قد يكون الموت - الشاب جميلاً. اما الموت - الشيخ... كأي أراه يدب على عصاه متهاكاً - يتجه نحوي. منظر لا يسرّ.

كيف نغير المنظر؟ أبالصدقة؟ أبالحب؟ أبالكتابة؟"

لا تخيفني الشيخوخة يا ادونيس. أتوقعها كما أتوقع سفرًا الى بلد بعيد لا اعرفه وان كنت اعرف عنه الكثير. ما يخيفني هو نهاية الصيف، نهاية حياة مفتحة على العالم. اقشعرّ عندما ارى نفسي وحيداً، منغلقاً على نفسي، ليس في حياتي الا صحي والطبيب والدواء.

منذ سنوات، أثناء قراءة مقالة في كتاب لمونتaign، وقعت على سطر هزني في أعماقي. ثم فقدت الكتاب، ونسيت كلمات مونتaign. الى ان حدث ذات يوم، وكنت في لندن في زيارة صديقي ياسين، ان عادت الكلمات الى ذاكرتي، فقضيت يوماً بكامله أبحث عن الكتاب في مكتبات لندن الى ان وجدته في مكتبة صغيرة في

Montaign

كينسنجتون. قرأت المقالة كلمة كلمة، لكنني لم اعثر على المقطع الذي هرّ كياني.

احاول الآن استعادة هذه الكلمات كما تخيلتها: تأتي لذي الحظ برهة في الحياة يستفيق فيها قبل فوات الاوان فيضع الامور التافهة التي شغلته عن حياته جانبا ويفتش عن ذاته التي فقدتها. بالعودة الى الذات يقصد مونتaign الذات الطبيعية، "ذات" العيش اليومي، وهي غير التي دعا اليها ميخائيل نعيمة في فلسفته الصوفية، بل الذات "الحقيقية"، الذات "الجوانية" التي ترفرف فوق "الانا" اليومية المعاشة.

ليس لدي رغبة في الخلاص او العودة الى ذات روحية عليا مثل تلك التي نادى بها نعيمة. ليس هناك غير هذا الجسد وهذه الحياة وهذه الانا. كل ما اصو اليه الآن هو عيش ما تبقى من العمر في وئام مع هذه الذات التي اعرفها وتعرفني. كل ما اتمناه هو الحفاظ على نشاطي الفكري والجسدي، على مجابهة المرض والتغلب على الضجر.

كيف لي ان اؤمن كل هذا؟

افكاري تنتقل من موضوع الى موضوع. تفقر كالعصافير من غصن الى غصن دون كَلَلٍ او تعب، فأحاول اللحاق بها. ولاني اكتب ببطء لا استطيع الامساك بها احيانا. لا اعرف كاتباً ابطأ مني فيما اكتبه الا صديقي ياسين. فانتاجه لا يتعدى بضعة اسطر في اليوم. غير اني لا احسد الذين يكتبون بسرعة. هؤلاء لا

يأتيهم الوحي الا باحتساء القهوة المرة وتدخين السجارة تلو السجارة. السريع في الكتابة هو الذي يمتطي الكلمات كما يمتطي حصاناً جامعاً يسير به في الاتجاه الذي لا يبحاره. اما الذي يكتب ببطء (مثلي ومثل ي. س.) فيصارع الكلمات وهي تصارعه الى ان يخضعها او يترجل عنها، ويجد غيرها، فيلجمها او يتوقف عن الكتابة.

الكتابة للمني، مثلي، هي الوطن الباقي لذا اشعر بالغربة عندما اكتب بالانكليزية. فرغم عراكي مع الفصحى، اشعر نحوها بحب عميق. درستها صرفاً ونحواً على موسى سليمان وانيس فريجه وتعلمتها خطأ رقعياً على يد الشيخ نسيب مكارم الذي كان يفرك اذني بقسوة لم اختبر مثلها في حياتي الدراسية كلما اخطأت في كتابة الرأء او الواو او الياء المقصورة (ربما الامر الذي جعلني اكتب في الاشعور خوفاً عميقاً من "الكتابة" بالعربية). ما زلت ارنكب افدح الاخطاء في الصرف والنحو. وخط يدي ما زال معوجاً في رائه ويائه وواؤه. واكاد اعجز أحياناً عن تمييز ما أخطئه بنفسي.

١٢

كيف أصف المشهد السوريالي الذي يتمثل لي في هذه اللحظة ويشير في نفسي مشاعر الاسى والعبت ذاتها التي شعرت بها عند رؤيتي له؟

بيروت، شتاء ١٩٧١. نحن في الطريق الى المطار. جنازة تعرقل السير. يتوقف السائق الى جانب الطريق. انزل من السيارة واقف. رجال ملتحمون يرتدون اللباس القروي والقباز وعلى

٥

٨ رؤوسهم عمام بيضاء يرفعون على الأكف تابوتاً خشبياً يعلو ويهبط بين العمام كفارب تتقاذفه الامواج. الريح الغربية تهب قاسية من حهة البحر وتملاً الجو بالرمال وتغلف الناس بستار رمادي يزيد من خيالية المشهد. يقول السائق: "انها جنازة فريد الاطرش. جاؤوا بجثمانه من مصر ليدفنوه في جبل الدروز." شاهدته قبل أيام على شاشة التلفزيون في مقابلة اجريت معه قبل عرض الفيلم الذي يقوم فيه بدور شاب تقع في غرامه النساء مع انه في اواخر الخمسينات من عمره. سألته المديح عن سبب كرهه للزواج، فأجاب: "الفنان لا يمكن ان يكتفي بأمرأة واحدة!"

يغيب تابوته عن نظري بين العمام، وأصعد مسرعاً الى السيارة لنصل الى المطار قبل ان تقلع الطائرة

١٣

في هذه الغرفة البيضاء الباردة اشعر بحنين جارف الى زوجتي والى ابنتي ليلي، الى بيتي وكل خاص وحميم في حياتي. في المساء نجلس حول مائدة الطعام. الكلب الصغير هنري يقفز الى كرسي بجانبني، كأنه يتوقع مشاركتنا في الطعام. عندما نتحدث يدير وجهه الى المتكلم وكأنه يتابع ما يقوله. ندير التلفزيون لسماع الاحبار فيركز اهتمامه مثلنا على الشاشة الصغيرة. ليلي ستغادرنا خلال أيام. تخرجت من الجامعة. أصبحت في الثانية والعشرين. بالامس القريب كنت اسرد عليها القصص عن نديم ومغامراته الخيالية. سألتها اذا كانت تذكر تلك الحكايات. قالت: "اتذكرها بحذافيرها ولم اصدق واحدة منها." اذكر كيف

كانت عيناها تمتلئان بهجة وحماساً وهي تجلس الى جاني لأروي عليها قصة اخرى. كنت اظن انها صدقت كل ما روته عليها من مغامرات نديم (نقولا تادرس). حبنا لاولادنا هو الحب النرجسي الكامل. نحب انفسنا بواسطتهم. انه حب لا يقتصر على صفة من صفاتهم او على فترة من حياتهم بل يشمل شخصيتهم وحياتهم كلها. انظر الى وجه ليلى وارى لطفلة التي كانت تمسك بيدي وبحر نسير على الكورنيش عند الغروب وادها حيث كا نسبح في بحر الجامعة عند عين المريسة. اسمع صوتها تكلمني على الهاتف بعد وصولها الى المدرسة الداخلية في كونتيكت وهي تغالب البكاء بشجاعة تقول بصوت متهدج انها جلست الى مائدة الكافيتريا ولم يحدثها احد. انها وحيدة ولا تعرف احداً. والآن، ستذهب الى مدينة بعيدة وستفتش عن عمل. ليلى الصغيرة كوحدها في مدينة شيكاغو. زوجتي مولعة بالحدائق. انها الآن في الخمسينات. اراها تعمل في حديقتنا الصغيرة. ترفع رأسها وتنظر نحوي. السنون لم تغير ملامحها الوسيمة. انصورها الآن كما كانت عندما التقيتها لأول مرة. نادراً ما ارجع بذاكرتي الى تلك الايام. تخطر على بالي أكثر عندما اسافر في رحلة طويلة، فما ان تقلع الطائرة حتى اشعر بحنين اليها واعاهد نفسي بأن اجد وسيلة نعبر عن مشاعري نحوها حال عودتي. اخطط لنمط جديد في حياتنا. وبعد ان اعود يزول الحنين واغرق في الروتين اليومي، وانسى لحظة الرؤيا.

اكثر ما يدهشني اندفاعي المستمر الى تغيير نفسي. ما زلت

اسمى الى تحسين قدراتي، للاستفادة من الدروس التي اتعلمها من خبرتي وقراءاتي. ويدهشني أكثر استمرارى في هذه المحاولات رغم فشلي المتكرر، كأنى ما زلت اتطلع الى مستقبل يمتد الى ما لا نهاية. قبل دخولي المستشفى بحادثة التسمم حدث معي ما يقع لي مراراً وأنا أقود سيارتي الى الجامعة ارى سيارة تحاول اجتيازي، وسائقها يضغط على البوق، فأزيد من سرعتي وامنعه من اجتيازي. فيزيد هو من سرعته الى ان نصل الى ضوء أحمر، فتتوقف وننظر الى بعضنا البعض شزراً. ثم يتغير الضوء الى أخضر، ونستمر في السباق

كل مرة اقول لنفسي، بعد ان تهدأ اعصابي، ان هذا التصرف غير لائق باستاذ جامعي يدعو الى المسلك العقلاني والتعلب على العنتريات الذكورية، فأعد نفسي بأن احافظ على برودة اعصابي وامتنع عن الدخول في هذه الرياضة انصيابية، وان لا "أضع رأسي براس" اي سائق أرعن يريد تجاوز سيارتي الصغيرة لكن اقع في الفخ ثانية عندما يفاجئني سائق لثيم يقود سيارة مرسيدس سبور حمراء تبدو كالعروس الشابة بالقياس الى سيارتي الهزلة. وبعد كل محاصرة القيها او نقاش اشترك فيه ما زلت انتقد نفسي واحاول، في تخيلتي، تصحيح ما ارتكبته من هفوات في الاسلوب والمضمون. يبدو لي اني لم اصل بعد الى المستوى الذي كان عليه اساتذتي والكبار الذين عرفتهم في حياتي من الوقار الذي يتجسد، في المجتمع الابوي، في هبة المركز وتقدم السن، في اللهجة الأمرة والاسلوب المترفع.

خمس سنوات، بالاكتر عشر: ربما هذا ما تبقى لي من عمري. اسائل نفسي: كيف سأحيا هذه البقية الباقية من حياتي؟ ارسم الخطط في ذهني، اتمسك بصحوة الوعي، واعد نفسي

باسترجاعها صباح كل يوم.
لحظات الرؤيا لا تأتي الا في حالات المرض أو الخطر، ثم
فجأة تختفي، ونعود نستقل قطار الايام السريع السائر الى النهاية.

١٥

تقاعدتي اصبح على الابواب. تفاجئني رسالة من شركة التأمين
الصحي تنبهي فيها الى اني اصبحت في سن يؤهلني الحصول على
الضمان الصحي الشامل وعلى تخفيض عشرة بالمئة من سعر الدواء
ومن سعر تذكرة السينما والباص لاني اُمسيت في خانة المواطنين
المستين.

كانت سنّ التقاعد الاجباري في الجامعات الاميركية الخامسة
والستين، الا ان قانوناً صدر مؤخراً الغى التقاعد الاجباري واعطى
الاساتذة الحق في تأجيل موعد تقاعدهم الى السبعين وما بعد.

لو اني قررت التقاعد في نهاية هذه السنة فما الذي سأفعله في
اوقات فراغي؟ هل أعود الى الوطن؟ اين "وطني" الآن؟ الضفة
الغربية، أدخلها بجواز سفر اميركي لسته اشهر قابلة للتجديد؟ أم
لبنان، حيث يسمح لي بالاقامة لمدة ثلاثة أشهر فقط؟

في ايام الثقة والامل، كنت احلم بالتدريس في جامعة
الكويت. لكن حصولي على تأشيرة دخول الى الكويت اليوم اصعب
من حصولي على تأشيرة دخول الى اسرائيل.

بقي الاردن، أقرب البلاد الى مسقط رأسي. هذه الاعشاب
وهذه الأشجار وهذه الصخور وهذه التلال وهذا النسيم وهذا
الصعر وهذه الخضار، هي كلها امتداد لفلسطين وطبيعتها وارضها.

أول ما افعله كلما توقفت في عمان لبضعة ايام هو الذهاب برفقة امين او خالد او مصطفى الى النهر او الى قلعة الربض او الى مرتفعات البحر الميت لرؤية جبال فلسطين وسماؤها. وعندما استيقظ في عمان وافتح النافذة وارى اشعة الشمس الذهبية يمتليء قلبي بالفرح، واتذكر فصل "راس روس" في كتاب خليل السكاكيني الذي تلقيت فيه اول دروس اللغة العربية، واحس على وجهي "اشعة الشمس الذهبية" (كما وردت في احد دروسه الاولى الذي كانت تقرأه علينا مس لباط في الغرفة الواسعة الملاءى بنور الشمس في مدرسة الفرندز للساب).

لا استطيع اتخاذ القرار الآن. لا يزال هناك متسع من الوقت. اهتمامي الآن ليس بالمكان، بل بما ساكون فيه من حالة صحية. المكان هو الجسد الآخر الذي نملك بعض السلطة عليه.

عندما آوي الى غرفة نومي واجلس في سريري مسنداً ظهري الى المخدات الاربع المريضة ما يساعدن على القراءة، احس بطمانية عميقة. في متناولي كتيبي التي اقرأها في المساء، وإلى جانبي الراديو الذي استمع منه الى الموسيقى عندما اكون تعباً. وفي الخارج الليل اسود حالك والصمت لا يقطعه الا صياح خافت متقطع لما صمد من صرّار الليل في نهاية الصيف. اني في المنفى، لكن هذا المنفى هو بيتي وعلمي.

عندما اقل الراديو واطفيء الضوء ابقى احياناً جالساً في الظلمة. وقبل ان يغلبني النوم اذكر نفسي بان الزمن قد قارب على النفاد، فلا يختلج قلبي ولا اشعر بحزن او اسى. اغمض عيني واغرق في النوم. ليت الموت نوماً!

وهكذا، بعد مرور سنة كاملة على عملية الاستئصال وتسهم الدم، سنة مليئة بالمشاغل والعمل والسفر، يُظهر الفحص الذي

اجراه الدكتور سعيد كرمي امس وجود سرطان في الغدة البروستاتية.
واليوم سيبدأ الفحص الحاسم فيما اذا كان السرطان ما زال محصوراً
في الغدة او انه انتشر في انحاء الجسم واخترق العظم.

١٦

استيقظ باكراً. اجد زوجتي قد رتدت ثيابها استعداداً لمرافقتي
الى المستشفى. ومع اني ميأت نفسي لمجابهة هذا اليوم ليوحدي،
فهي تصرّ على مرافقتي. بعد وصولنا الى المستشفى احاول اقناعها
دون جدوى بعدم الانتظار والعودة الى البيت. دون جدوى.
”سأجلس في الكافيتريا واقراً حتى تنتهي الفحوص. لا تشغل
بالك.“

يقع قسم التصوير الالكتروني في الطابق الثاني من المستشفى.
اسجل اسمي ثم اخلع ثيابي وارتدي القميص واللباس اللدن
اعطتني اياهما الممرضة واجلس في غرفة الانتظار، وأفتح كتاباً لهدجر
احضرته معي عنوانه ”الشعر، اللغة، الفكر.“ همي الآن السيطرة
على اعصابي ومنع الخوف من الاستيلاء على مشعري. اقرأ في
صمت الغرفة الفارغة، لا اسمع ولا ارى الا ما كانت تبوح به
كلمات هيدجر عن ”الشيء“. اخيراً تحضر الممرضة. تأخرت بسبب
عطل في احدى ماكينات التصوير الالكتروني. تسير بي الى غرفة
معتمدة ملأى بالآلات من انواع واحجام مختلفة.

اجرت فحص العظم امرأة في مطلع الثلاثينات، جميلة الوجه
نحيفة القد. سألتني هذه الاخصائية وانا مستلق تحت الآلة المثبتة في
السقف عن اختصاصي الاكاديمي. وعندما اخبرتها اني ادرس التاريخ

قالت انه كان المادة المفضلة لديها في جامعة اوهايو. ستعرق الفحص قرابة ساعتين. التقطت الاخصائية عشرات الصور من كافة الجهات. كانت تمسك بي كأنها تمسك بلعبة بين يديها: ترفعي، تقلبني جانباً، تمددني على ظهري او على جانبي دون اية صعوبة او تردد. في نهاية الفحص قالت انها ستدخلني في انبوب التصوير الهيكلي، وهو آلة مستديرة تجري مسحاً عن الهيكل العظمي. امسكت رقبتي بيد ووضعت اليد الاخرى بين ساقي، ثم لوتني بحفة المصارع ودفعني بسرعة مدهشة داخل الانبوب. فوجدتني فحاة حبساً حتى رقبتي لا تستطيع حراكاً. تذكرت تلك اللحظة، لحظة انتهت فيها براءتي، يوم ذهت، برفقة لبس وعبد اللطيف الى احد لبيوت خلف ساحة الشهداء. سألتني سولونج (يحضرنى اسمها فجأة!) وانا متمدد على الفراش لا ابدى حراكاً، وهي الى جانبي جالسة على ركبتيها، عارية تماماً الا من ابتسامة لطيفة: "كيف بتريدي؟" لا افهم سؤالها. فتسألني مرة اخرى وهي تلمسي برفق. وعندما لا اجيب، تمسك بي كما امسكت بي الممرضة الآن، وترفعني بحفة مدهشة وتطعنني الى جانبي فلا ادري الا وانا في قبضة محكمة كما كنت لان.

انزل الى الطابق الرابع لاجراء الفحص الآخر (السونوغرام). الساعة قد قاربت الثانية عشرة. تقول الممرضة المداومة عندما اسجل اسمي: "انتظر هنا، سيحضر الدكتور كرمي لرؤيتك بعد قليل." اشعر بالبرد، واجمع اللباس الرقيق حولي وافتح كتاب هيدجر.

اشعر بما يشبه الدوران. احسّ باني ارى الاشياء كما نرى الاسماك من وراء حاجز زجاجي. انظر الى الصفحة امامي فأرى الحروف بارزة سوداء كأنها تطمو على سطح الصفحة. عدة لا ارى الحروف عندما اقرأ. الصور والاصوات تختلط في ذهني. تمر لحظات، وعندما ارفع رأسي عن الكتاب، لا ادري اين انا او ما يحدث حولي.

عندما يصل سعيد أسأله اذا كان للدواء الذي تناولته قبل الفحص تأثير على الشعور. ويعلمني ان هذا ليس دواء بل سائل ملون يحتاج اليه التصوير ولا تأثير له على الاطلاق. ويسألني عما تناولت من طعام او مشروب في الليلة الماضية. فلا استطيع الاجابة بوضوح. لا استطيع العودة بفكري الى "الليلة الماضية". "الان" و"الامس" يحتلطان في ذهني. احاول ان اشرح له ما كنت اشعر به في تلك اللحظة من ارتباك وغموض ذهني. اسمع كلماتي كأنها صادرة من فم شخص آخر. انا المتكلم والسامع في ان. اهم الكلمات التي اتفوه بها من الداخل واسمعها بالوقت ذاته من الخارج. اتوقف عن الكلام لاستجمع افكاري. تختلط في ذهني كلمات هيدجر وما حلمت به الليلة الماضية وما كان يخطر بالي من تصورات وافكار في هذه اللحظة. لم اعد افرق بين ما هو واقع وبين ما هو خيال، بين ما افكر به انا وبين الاحاسيس التي تأتيني من الخارج، بين ما هو حاضر وما هو غائب.

اظن ان سعيد لاحظ ارتباكي. ربما عزا تخطي في الكلام الى القلق والارهاق. وضع يده على كتفي وقال لي مطمئن ان كل شيء على ما يرام. ثم سار معي الى غرفة السونوغرام وقال: "سأجيبك بالنتائج بعد انتهاء الفحص. انتظري بعد ان ترتدي ثيابك."

تجربة سوريالية اخرى تنتظري في غرفة السونوغرام. تناولني الممرضة وعاء بلاستيكيًا ضخمًا مليئًا بسائل ابيض وتقول: "اشرب

بيطء. " اشرب الكأس تلو الاخرى بشكل آلي، ثم اتمدد على منصة التصوير. تسألني اذا كنت بحاجة الى التبويل. اعلمها اني فعلت بعد الفحص السابق ولا اشعر بحاجة الآن.

في الغرفة ثلاث ممرضات تقوم كل منهن بدور محدد. تغرس احدهن ابرة في ذراعي الايمن وتعلق الرحاجة بعامود يقف الى جانب المنصة. واشعر فجأة بحاجة الى التبويل. اهمس في اذن الممرضة القريبة: "اريد الذهاب الى الحمام." تقول لي اني لا استطيع مغادرة الغرفة وعليّ ان ابول حيث انا. انظر حولي. السائل الذي شربته يكاد يفجر امعائي. كيف ابول امام الممرضات الثلاث. تناولني وعاء التبويل وتقف هي وزميلاتها ينظرون اليّ. احسّ بالفزع، الفرع ذاته الذي هيمن عليّ منذ بضعة اشهر عندما دخلت في فترة الاستراحة، خلال مؤتمر كنت اشارك فيه برلين، الى دورة المياه. ما ان جلست فوق المرحاض حتى تناهى الى مسمعي اصوات نسائية. ادركت على الفور اني في دورة مياه السيدات. رفعت بنطلوني وفتحت الباب وركضت خافيا وجهي بصفحة يدي.

تاخذ الممرضة الوعاء من يدي وتطفيء النور وتبدأ بعملية التصوير. اغلق منافذ الحس في ذهني كما اعلق نوافذ غرفتي عندما اطلب العزلة التامة. اني منعزل عن العالم، محصن في الظلمة الساكنة، لا يراني احد. كأنها العودة الى الرحم.

اعرف سبب الفوضى في نفسي. انها التحصينات الذهنية التي اقمتهما لأدفع عني الخوف. ركزت كل قواي على الهرب. فكدت اهرب من الذات ومن العقل الواعي. كان الضغط، كما يبدو، اقوى مما يتحمله جهازني النفسي. فغبت عن الأنسا. اصبحت خارجها، لا قدرة لي على امتلاكها، حتى لامست حدّ اللاوعي، حالة الهديان. غير اني تماسكت في اللحظة الاخيرة وتراجعت عن شفير الهاوية.

ارتديت ثيابي بسرعة وجلست في غرفة الانتظار، وقد عاد إلي صوابي وتمالكت اعصابي تماماً. قلبي يدق بشدة الا اني سيد نفسي الآن وعلى استعداد لمجابهة ما سيأتي بي به سعيد من اخبار.

حالما اري الابتسامة على وجهه الوسيم اعرف ان النتائج جيدة. "كما قلت لك. لم يحصل انتشار. اطراف الجسم سليمة ولا يوجد شيء في العظم. السرطان محصور في الغدة، وسنجري عملية الاستئصال في الوقت الذي تحدده."



على حائط مكتبي مجموعة صور فوتوغرافية لمدينة عكا اراها
صباح كل يوم. التقطت هذه الصور حسب توجيهاتي الدقيقة مديرة
مكتبنا الاميركية اثناء زيارة قامت بها الى فلسطين منذ بضع سنوات.
رسمتُ لها خارطة الشاطيء العربي خارج السور، حيث كان يقع
بيت جدي بالقرب من دائرة البوليس والجامع، واشرتُ الى المكان
والساعة لالتقاطها.

في الصورة الاولى يظهر الشاطيء باتجاه الشمال ورأس
الناقورة، من مكان يقع بالقرب من "المفجر" الذي لا يبعد كثيراً
عن بيت جدي. في الصيف، عندما تكون سماء عكا زرقاء صافية
يمكن رؤية رأس الناقورة (الحذ الفاصل بين فلسطين ولبنان) من
الشاطيء. كنت احلس في هذا المكان فوق صخرة أكاد اتبينها في
الصورة، تطلُّ على "النيل"، كما كنا ندعو المنطقة العميقة من البحر
الواقعة خلف صخور الشاطيء، واصطاد السمك بواسطة القصب

والصنارة. ولما يمتنع السمك عن الالتفات الى طعمي اضع قصبه الصيد جانباً واسند ظهري الى الصخرة الدافئة وأخذ في قراءة كتاب كنت أحضرته معي احتياطاً، الى ان يحين موعد الغداء فأسير الى البيت حافي القدمين فوق رمل الشاطيء الخشنة.

الصورة الثانية التقطت من الشاطيء عند المعيب، وتبدو فيها الشمس قرصاً مدوراً، يشع ضوءها من خلال الغيوم الرمادية وينعكس خطأ ذهبياً فوق الامواج المتكسرة على الصخور. كنت أرى هذا المنظر من شرفة بيت جدي المطلّة على البحر حيث اجلس أحياناً عند الغروب وبين أصابعي مسبحة وأغرق في الافكار واحلام اليقظة. هنا، ونحن صفاراً، كنا نستحم في الصباح الباكر في المياه الدافئة الشفافة. كنا نقف فوق الصخرة المشرفة على "النيل" فنصل المياه الى خاصرنا ساعة المد، ثم تنحصر بسرعة فنقفز الى المياه العميقة ونسبح قليلاً ثم نعود مسرعين مع عودة المد الذي يحملنا فوق الصخور، نفتش بأقدامنا عن موقع نقف عليه، مما كان يتطلب مهارة في التوازن والتوقيت. وكثيراً ما دحرجتنا الامواج اذا لم نجد مكاناً نقف عليه، فنفقد توازننا ونقع على الصخور مع انحسار المياه السريع، فتدعى ركبنا وأكواعنا في هذا المكان أيضاً كنا نصطاد السمك في الايام المؤاتية، اي عندما تهب الرياح الشمالية وتنخفض الغيوم وتتعكر مياه البحر. كان نوعا السمك اللذين يحلو لنا صيدهما بالقصبه والصنارة، هما البوري والسرغوس. لكننا نادراً ما تمكنا من اصطياد هذين النوعين الفاخرين. كنا في الغالب نصطاد "القراص" او "البلفيك"، كما كانوا يسمونه في بيروت لسبب ما، وهو سمك ناعم الجلد ذو زعانف حادة ما ان نصيب اليد حتى تلذعها ونحدث ألماً شديداً لا يدوم طويلاً. لهذا كلما تقوصت قصبه صيد في يد احدنا، حذره الآخرون: "دير بالك، قراصة!". كان الشارع

الرئيسي خارج السور المحيط بعكا القديمة ينتهي في الموقع الذي التقطت منه هذه الصورة، ومن هذا الموقع يمكن رؤية كل ما يجري على الشاطئ.

ادكر يوماً في صيف ١٩٣٨ (وكت في الحادية عشرة من عمري) وأنا على وشك ركوب السيارة مع والدتي لقضاء ما تبقى من الصيف في لبنان. سمعت صفيص صديقي كامل الذي كان يصطاد السمك في مكاننا المعتاد، ورأيت يلمح لي بيد ويمسك باليد الأخرى قصبة الصيد التي تقوست بسبب ضغط السمكة العالقة بالصنارة. وفي اللحظة التي انطلقت فيها السيارة بالرحله، رأيت كامل يشد القصبة بكلتا يديه وهو يصيح "بورية، بورية". وقبل ان يغيب عن ناظري، رأيت لمعة البوري الفضية، وكامل يمسك بخيط الصنارة رافعاً بورية ضخمة، اظنها البورية الوحيدة التي اصطادها احدنا في تاريخ حافل بأساطير الصيد.

اما الصورة الثالثة فتمثل امتداداً للصورة الثانية. اذ التقطت من الموقع نفسه باتجاه الغرب. في تلك الفترة من النهار عندما كان الشارع المحاذي للشاطئ يخلو من المشاة وتختفي اصوات بائعي الكعك والمستق عبيد والسمورة، كان لا يُسمع الا هدير الامواج الخافت. انظر في الصورة الى الافق الوردي البعيد وأشعر في هذه اللحظة سهواً عكا يلامس وجهي ويعيدني الى ذكريات الصيف فيها.

ادير نظري الى الصورة الرابعة التي تظهر فيها بركة الشيخ اسعد وحلفها السور، وفي الافق البعيد جبل الكرمل. عند السور ينتهي الشاطئ الذي كان ملعبنا الممتد حتى "المفجر" ومزار الشيخ عز الدين شمالاً. كنت بركة الشيخ اسعد تحتل مكاناً مركزياً في جغرافية عالمنا. سميت باسم الشيخ اسعد لانها كانت تقع مقابل

بيته. والشيخ اسعد هو الشيخ اسعد لشقيري، خرّيج الأزهر حيث درس على الأفغاني وعبدّه، واصبح فيما بعد احد امناء مكتبة السلطان عبد الحميد وعضو مجلس المبعوثان في استانبول اثناء الحرب العالمية الاولى. وقد ذكره لورنس في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" (Seven Pillars of Wisdom). كنا نراه أحياناً يجلس وحيداً بعمامة الضخمة ولحيته الكثّة على شرفة بيته الواسعة، ينظر الى البحر دون حراك. كان يستقبل ضيوفه ومن بينهم جدي في ايام محدّدة في الاسبوع، فيتكلم بصوت منخفض بسبب مرض في انفه، والجميع يستمع اليه بصمت، ولا اظن ان احداً ممن كان يستضيفهم لا يزال حياً. توفي الشيخ اسعد بعد مدة قصيرة من اغتياله انه الدكتور انور على يد الثوّار. كان انور طبيباً معروفاً، وكنت اسمع أمي وجدتي وخالاتي يتحدثن عنه باعجاب. وكان كلما مر امام بيتنا، تحدث في البيت ضجة ويسرع الجميع الى مشاهدته من النافذة المطلة على الشارع الرئيسي. لم يكن تجاوز الثلاثين من عمره عند اغتياله. ليلة امس رأيت عكا في منامي. كنت اسير حافي القدمين على الشاطيء في طريق عودتي الى البيت. وحين اصل الى الشارع اجد امامي حاجزاً من الاسلاك الشائكة يمتد على طول الشاطيء. فأتذكّر فجأة ان عكا هي الآن في "اسرائيل". افتش في جيوبي عن جواز سفري فلا اجدّه. وفي تلك اللحظة يبرز امامي شرطي اسرائيلي يرتدي زي البوليس البريطاني ايام الانتداب، فيما هو يمدّ يده نحوي. ثم استيقظ، والعرق يتصبب من جبيني.

أذكر الآن مشهداً آخر، لست ادري ان كان حلماً حلمته في سن المراهقة او حادثاً وقع بالفعل وغاب في أعماق ذاكرتي. كنت اسير في فترة الظهيرة بمحاذاة بركة الشيخ اسعد، وكان الحرّ شديداً والشاطيء خالياً من الناس. وفجأة رأيت فتاة في الرابعة عشرة او

الخامسة عشرة من عمرها، ترتدي مايوه سباحة أحمر اللون. طويلة القامة، ممتلئة الجسم، وعلى وشك أن تضع قدمها العارية في الماء. وفجأة استدارت نحوي، كأنها شعرت بأني أراقبها، وابتسمت كأنها تعرفني فربكت وادرت وجهي وصعدت الى الشارع راكضاً. اظن انها كانت المرة الاولى التي ارى فيها جسد امرأة.

الصورة الاخيرة التقطت من موقع داخل السور في المدينة القديمة، بالقرب من الكازينو المطل على الثغرة الواسعة التي احدثتها الامواج والاعاصير عبر السنين في السور الغربي عند نقطة نتوءه القصوى في البحر، وتشير الظلال والاضواء الى ان الصورة التقطت في طقس غائم، وتظهر تجمعات سطح الماء في البرك الهادئة بين الصخور ان الريح كانت تهب من الشمال. تلاشت زرقة السماء وراء الغيوم الرمادية العالية التي ظلمت وجه البحر بضوء شفاف. أما لون الصخور فكان رصاصياً غامقاً وظهر عند حدود "النيل" صياد وحيد يصطاد بالقصبة. كثيراً ما توقفنا في هذا المكان في طريقنا الى السوق لراقب الصيادين. كان كامل يعمل مساعداً في صيدلية اللباييدي القريبة من مركز البوليس عند مدخل المدينة القديمة مقابل جامع الجرار. وكانت فرصته الاسبوعية المؤلفة من نصف يوم تبدأ في الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة. كان يمر علي بعد الغداء، وقد ارتدى سترة ورباطة عنق، وذهب الى داخل المدينة القديمة لتناول البوطة العربية في دكان صغير بالقرب من الميناء، وبعد ذلك لمشاهدة فيلم سينمائي في اول صالة سيما اقيمت في عكا في احد المباني القديمة في الساحة المحاذية للميناء.

كان لعكا القديمة في ذلك الوقت ثلاث بوابات. الاولى البوابة الشرقية وكنا ندعوها ببوابة سكة الحديد. والبوابة الثانية كانت تلك التي شيدها حكومة الانتداب في منتصف السور الممتد من البوابة

الشرقية الى البحر. والبوابة الثالثة هي بوابة "السجن" في نهاية الشارع المحاذي للشاطيء حيث يقع بيت جدي. وكنا نذهب عادة عن طريق بوابة السجن لنراقب الصيادين امام الكازينو ثم نكمل سيرنا الى دكان البوظة مروراً بكنيسة الأرثوذكس.

٢

كان جدي في ذلك الحين في منتصف الستينات من عمره، في مثل سني عند كتابتي هذه السطور. قبل تقاعده في نهاية الحرب العالمية الاولى كان يحتل منصباً رفيعاً في البصرة اثناء الحكم العثماني وانتقل الى عكا تاركاً خلفه عالماً انتهى مع الحرب العالمية الاولى وانهار السلطنة العثمانية. أذكره شيخاً لا يخرج من البيت الا نادراً، يتقيد بنظام يومي دقيق أعدته جدتي خصيصاً له. كان يمضي معظم اوقاته مرتدياً البيجاما والروب ديشامر، يأكل حفيفاً في مواعيد محددة، ويستريح بعد وجبة الغداء. كانت جدتي تسمح له بتدخين نصف سيجارة مع فنجان قهوة ثلاث مرات في اليوم، في الصباح وبعد الغداء وعند المساء. كانت الصحيفة اليومية "فلسطين" تصل عند الظهيرة فتحتفظ بها جدتي حتى موعد القيلولة وتأخذها اليه الى غرفة النوم فيقرأها قبل ان يخلد الى النوم.

في الساعة الرابعة من كل يوم (ما عدا أيام الجمعة) كان يأتي لزيارته صديقه الحميم أحمد افندي حبشي، فيجلسان في غرفة الاستقبال، اذا مال الطقس نحو البرود، حسب تقدير جدتي، او في الشرفة المطلة على البحر، اذا وافقت جدتي على ذلك، ويلعبان "الباصرة". وعندما ينتهيان من لعب الورق يجلسان يحتسيان القهوة

بصمت ولذة: أحمد افندي فنجاناً كاملاً مع سيجارة بكاملها وجددي نصف فنجان ونصف سيجارة.

أكثر من مرة شاهدت جددي يفتتح فرصة غياب جدتي في زيارة حارج البيت، فيدخن سيجارة كاملة مع قهوته. كانت هذه مناسبة نادرة يخرج فيها عن اراده جددي.

كانت العلاقة بيني وبين جددي خاصة، بحكمها اسلوب التفاهم الرمزي الذي ينشأ بين جد وحفيده، بين شيخ وطفل. نادراً ما كان جددي يدخل معي في حديث مفصل، إذ يقصر كلامه على اسئلة مبهمه يطرحها عليّ باسلوب مداعب. فإن رأيت أحمل قصبة الصيد وأهم بالخروج من البيت، استوقفني ثم سألتني بصوت منخفض وبلهجة تأمرية: "إلى أين تذهب؟"

وقبل ان اجيبه، يقول بصوت مرتفع: "آه، أدري، أدري، لاصطياد السمك."

ذات يوم، عندما علم بأني سألتحق بالجامعة الأميركية في بيروت، قال وهو يتسم ابتسامته التأمرية منحنحاً: "آه، آه، اذن راجع إلى بيروت."

كان عمري قد قارب الستة عشرة لكنه بقي يحدثني ببغته الخاصة التي اعتاد عليها مع حفيده الصغير.

لا اذكر جددي الا والابتسامة على وجهه. كان لطيفاً دمث الخلق. لم اسمعه يوماً يرفع صوته او يتكلم بغضب. وبما ان اعترافه بسلطة جدتي كان كاملاً لا مشروطاً، يتقبل آراءها في جميع المواضيع بصمت ودون تعليق، الا اذا تجاوزت في نظرياتها ما كان يعدّه خارج حدود العقل والمنطق، كما كان يحدث بين الفينة والاخرى، فقد آمن جواً من السلام والطمأنينة في بيته لم أشهد مثله في بيت آخر. كانت نظريات جدتي تقع في ثلاثة حقول كان له منها موقف واضح، وهي

السياسة والدين والصحة. كنت اتوقع كلما تعدت جدتي "المعقول" في كلامها، ارتسام ابتسامة خفيفة على وجه جدي يتبعها تتنحج خافت يكاد لا يسمع: "آه... آه..." لذلك كانت جدتي دائماً على حذر عندما تبدأ بمناقشة هذه المواضيع، مترقبة ردة الفعل السلبية بالتحنن التي تعهدها. ومن نظرياتها المؤكدة التي كان جدي لا يقبل بها على الإطلاق ان موسوليني كان مسلماً اعتنق لاسلام سراً، وان بين اميركا وهتلر معاهدة سرية، وان شرب البابونج ثلاث مرات في اليوم يمنع سرطان الرئة.

نادراً ما كان جدي يخرج من البيت، وان فعل، فأما لزيارة الشيخ اسعد او حسن افندي، او للصلاة في الجامع الملاصق لبيتنا في المناسبات الخاصة، او لقص شعره مرة في الشهر عند حلاقه ابو عزيز في السوق قرب جامع الجزار. وكثيراً ماكنت ارافقه في هذه المناسبة الاخيرة.

كانت جدتي لا تدعه يخرج، حتى لقص شعره، الا مرتدياً احدي بذلاته الفخمة، وتختار له رباطة عنق من بين العشرات التي اقتنتها له عبر السنين ولم يضع منها الا القليل فقي اكثرها جديداً، وتنصّب الطربوش على رأسه وتسير معه الى الباب حيث تكون بانتظاره عربة الخنطور. ويصعد جدي إليها ويجلس فيها متكئاً على عصاه المتوجة بمسكة فضية، فيبدو كأنه غير الرجل الذي اراه يوماً مرتدياً البيجاما والروب ديشامبر، ويعود الى ما كان عليه في الماضي، احد كبار موظفي الدولة السلطانية ومن اعيان المجتمع. كنت اجلس الى يساره فخوراً أمسك بعضاً من عظمة الافندية.

عند مدخل السوق كنا نترجل ونسير أمام الصيدلية حيث يشتغل كامل. ندخل السوق المسقوفة والذي شيد تمام كسوة الحميدية في دمشق لكن بحجم اصغر، الى ان نصل الى محل "المزير

العصري" فيستقبلنا ابو عزيز استقبالا حاراً. ويجلس جدي على كرسي الخلاقة العريض واقعد انا امام المحل على كرسي صغير احتسي كأساً من الليموناضة المثلجة وانفرج على المارة. وعندما ينتهي الحلاق من مهمته تتجول في السوق قليلاً، واحيانا يقبل جدي دعوة احد معارفه التجار فنجلس في مدخل دكانه ونتناول صحناً من بوظة الحليب المحليّة المطعمّة بالمستكة ثمّ يشعل بعدها سيجارة كاملة ويدخنها بلذّة ونشوة.

٣

انتقلت عائلة جدي الى بيت جديد سنة ١٩٣٥ او ١٩٣٦ وقررت جدتي "تحديث" البيت باستبدال طاقم السفارة بطاقم جديد وشراء راديو لاسلكي.

اما طاقم السفارة فقد استغرق صنعه عدّة اسابيع في اكبر محلات النجارة في عكا، وكان مؤلفاً من مائدة واسعة يجلس اليها اثنا عشر شخصاً، ويمكن تمديدتها باضافة عارضة خشبية في منتصفها وزيادة عدد المقاعد الى ثمانية عشر. وكانت مصنوعة، مثل المائدة، من الخشب الثقيل المصقول ويتطلب زحزحة كل منها جهداً عظيماً. وبلاضافة الى المائدة والمقاعد الثمانية عشر، كان هناك خزانة الصحون والفضيات التي كانت بطول المائدة وعلوها وتزيينها مرآة ضخمة.

اما الراديو اللاسلكي فقد عارض جدي شراءه باديء الامر لكنه عاد عن معارضته امام اصرار جدتي. كان ينظر الى الراديو في تلك الايام على انه قطعة موبيليا، فوضعت جدتي في قاعة طاقم

السفرة تكملة لمشروع التحديث، وليس في مكانه الطبيعي في غرفة الجلوس حيث كانت العائلة تمضي معظم اوقاتها. وكنت الوحيد الذي استمع اليه خارج نظام الاستماع الذي وضعتة جدي واقتصر على سماع صلاة الجمعة وتلاوة القرآن الكريم كل صباح ومساء. وبعد وقوع الحرب العالمية الثانية وسّعت جدي برنامجها واصبحت تستمع الى نشرات الاخبار لتتابع هزيمة الانكليز وتراجعهم في شمالي افريقيا. وكانت محطة الاذاعة المفضلة لديها محطة باري الايطالية التي كانت تذيع يومياً نشرتين بالعربية. وكانت تدعو الى نصره ايطاليا والمانيا لا حبا بهاتين الدولتين "الكفرتين" او بنظامهما الفاشي او النازي، فهي لم تكن تعرف ما هي الفاشية او النازية، بل لان المحور كان عدو الانكليز: "الانكليز الخونة الذين اعطوا فلسطين لليهود"

وابان معركة العلمين كلما سمعت خبراً جديداً عن هزائم الانكليز، هرعت الى غرفة الجلوس وأعلنت بصوت متهدج: "سيفتك الله بالظالمين. جاء يوم النصر واليوم المبين." ثم تعلّق على سير المعارك العسكرية، متنبئة بنهاية الحرب خلال ايام او اسابيع.

ذات مرة تنحنح جدي وهي تنقل اليه آخر الاخبار معلنا اعتراضه، فانتبهت اليه وقالت: "يعني مش عاجبك؟ بدك الانكليز ينتصروا؟"

"لا. بس سؤالي الطليان والامان افضل من الانكليز؟"

"على الاقل نتخلص من الانكليز الكلاب. عشرين سنة. قتلونا. خربوا بيوتنا. اعطوا اراضينا لليهود. ماذا تريد اكثر من ذلك؟"

بعد معركة العلمين وتراجع الالمان والطليان من مصر وليبيا

توقفت جدتي عن الاستماع الى اذاعة باري ولم تعد تتحدث عن الحرب الا نادراً.

٤

اكثر ما كان يقلق جدتي ويشير غضبها، موقف جدي المتسامح من الدين. كان واضحاً انه لم يكن يزجج نفسه بالموضوع اطلاقاً، على عكس جدتي التي كانت مأخوذة به. لذلك دائماً ما حاولت اثارة اهتمامه بالتحدث في موضوعات دينية معقدة مثل التي كانت تثيرها ايام "الاستقبال" امام السيدات اللواتي كن يزرنها كل يوم حميس ويجلسن يستمعن اليها بصمت كتيب. وكان جدي يجابه محاولاتها هذه بضجر واضح، اذ يرفض ابداء اي رأي في ما كانت تثيره من اشكاليات دينية وتثقيفية ويحاول تغيير الموضوع بشئ الوسائل، ما كان يزيد من غضبها، فتوجه اليه الاتهام المعهود بأنه السبب في تخلف حفيده عن اللحاق بأصول الدين.

"شوف شو عملت بالصبي، رح يطلع مثلك بلا دين، استغفر الله."

ذات يوم سمعت جدتي في نشرة الاخبار ان "شعرة النبي"، وهي شعرة من ذقنه وضعت في صندوق صغير مكسور بالحرير، ستصل بمناسبة العيد الكبير الى جامع البباييدي لمحاذاي لبيت جدي وستقام الصلاة عليها صباح العيد. كانت تتحدث الى خالتي سعاد، فلما سمعت بالخبر أمسكت عن الكلام وتجمدت مكانها، ثم تمتمت بخشوع وهي تمسح وجهها بيديها: "اللهم لبيك." ثم التفتت الى جدي الذي كان جالساً يدخن نصف سيجارة بهدوء

وقالت: "سمعت، سمعت؟ مرة بالعمر تأتي بركة مثل هذه ابركة".
 وسألت جدي: "وكيف تعرفين ان هذه فعلاً شعرة النبي؟"
 فقاطعتني بغضب: "شو هالحكي. هذه شعرة من ذقنه
 الكريمة. وبس تذكر اسم رسول الله، قول صلى الله عليه وسلم."
 ثم التفتت الى جدي قائلة: "هيك بيعجبك. هالصبي رح
يصير كافر."
 ثم اعلنت بلهجة صارمة انه يتوجب على جدي ان يذهب الى
 صلاة العيد وان يأخذني معه.

حاول جدي ايجاد عذر لعدم الذهاب بقوله انه لن يكون في
 الجامع الصغير موطىء قدم وانه ليس من الحكمة اخذ الصبي الى
 الصلاة في حالة كهذه. لكن جدي تظاهرت بعدم السماع وكتفت
 بالصمت وبتصويب النظرات النافذة اليه، ما اقنعه ان بجابه جماهير
 المصلين ساعة من الزمن أهون من تحمل صمتها الرهيب ونظراتها
 الجارحة.

وكما توقّع جدي، كان الجامع يطفح بالمصلين في داخله
 وخارجه، فأخذنا نشقّ طريقنا بين الواقمين والجالسين، فرأنا الإمام
 وقادنا الى الداخل، واجلسنا في الصف الاول امام المحراب. وبعد
 انتهاء الصلاة نهض الامام ليلقي خطبته، فلما شارف على نهايتها
 التفت اليّ جدي وقال بصوت منخفض: "عندما ينتهي قم واتبعني
 بسرعة."

كانت جدي بانتظارنا وفي يدها منقل البخور. اخذت تقرأ
 علينا الفاتحة و"قل هو الله احد" وعلى وجهها معالم الرضى. كنا، كما
 تريدنا ان نكون، رجلين، بل ولدين، مطيعين، نسمع كلماتها
 ونمثل.

في تلك الفترة كان يتردد على بيت جدي ضيوف من اماكن مختلفة، من القدس ويافا وطرابلس وبيروت وصيدا، معظمهم من الاقارب، وبعضهم من اصدقاء العائلة. لقد نسبتهم جميعاً ما عدا اثنين، "مرت الباشا" و "داهش بك".

كانت مرت الباشا ارملة احد كبار رجال العهد العثماني وصاحبة املاك شاسعة في الجليل والسهول المحيطة بعكا. كانت نذاك في الخمسينات من العمر، وعلى جانب كبير من الجمال، تلمت النظر شكلها واناقتها واسلوب كلامها. وغالباً ما تأتي لزيارة بيت جدي في اغرب الاوقات، في الصباح الباكر احياناً، او في اوقات الغداء، او في ساعة متأخرة من الليل. وكانت تتكلم بالتركية مع جدتي وبالعربية المكسرة او الفرنسية مع امي وخالاتي. واذكر كلماتها كلم شاهدني: "شر هالولد الحلو، رح يطلع شوك غورال"، وتقرصني في خدي بشدة. لكنها بعد ذلك كانت تصافحني بدل ان تطلب مني، كما كن يفعل صديقات امي وخالاتي، ان احضر اليهن ^{كا} ليتمكن من ضمي اليهن وتقبيلي قبلات رطبة مدوية، الامر الذي زاد من افتتاني بها.

وحين تأتي مرت الباشا لزيارتنا، تدب الحماة في البيت، وتسرع امي وخالاتي لاستقبالها. كن يجلس ساعات في الصالون يتحدثن ويضحكن ويشربن القهوة ويدخن السجارة تلو السجارة. وكانت جدتي تدخل عليهن بوقار معتمد وتجلس معهن قليلاً، صامته لا تتفوه بكلمة، ثم تنسحب اذا لم يثر حضورها اهتمام مرت الباشا التي كانت تستمر في حديثها دون إعارتها اي انتباه خاص. كان اكره الاشياء على جدتي ان تكون مستمعة فقط. فقد كانت دائماً ترغب

ان تكون هي المتكلمة ومحط الاهتمام. حاولت تغيير تكتيكها مع مرت الباشا بالتدخل في الحديث، لكن مرت الباشا كانت دائماً تقاطعها بعفوية وتستمر في الكلام. لكن أحياناً أخرى كانت مرت الباشا توجه حديثها اليها كأنها الشخص الوحيد الذي يهمها التحدث إليه، مما كان يسر جدتي إلى أقصى حد. فكانت في تلك الحالات تبقى في مكانها نضحك وتستمع وتتحدث لساعات طوال.

كانت جدتي في حضور مرت الباشا حذرة في كلامها، فتتجنب الحوض في المواضيع الثلاثة الحساسة، الدين والسياسة ولصحة، التي كانت تتحدث فيها أيام "الاستقبال" وتحاضر فيها بحرية تامة. لكن حدث مرة في إحدى الجلسات ويحضور مرت الباشا ان تطرقت جدتي إلى موضوع ديني نسيت ان لمرت الباشا موقفاً واضحاً فيه.

كنت جالساً في أقصى الغرفة اقرأ "مغامرات روكامبول" بانتظار عودة كامل من عمله في الصيدلية، فسمعت جدتي تقول: "المسلمون فقط يذهبون إلى الجنة. أما المسيحيون لأنهم كفار لا مهرب لهم من النار حتى ولو كان بينهم ناس طيبين." ورأيت مرت الباشا ترفع رأسها بدهشة وتقول بعجب وتلفظ الحاء هاء: "يعني جارتك أم هيب وزوجها أبو هيب وابنها هيب سيذهبون إلى النار لأنهم مسيحية؟"

أدركت جدتي خطأها.

كان المجتمع الراقى في عكا يدرك ان مرت الباشا سيدة "مودرن" متحررة ليس فقط في أسلوب معيشتها وتصرفها بل أيضاً في آرائها الجريئة وبخاصة فيما يتعلق بالدين والحرية الاجتماعية. لذلك كان كل من يعرفها يتحاشى الدخول معها في مثل الموضوع الذي أثارته جدتي.

التفتت مرت الباشا إلى خالاتي وأمي بهدوء، وقالت دون

غضب: "C'est incroyable!"

وغيرت امي الموضوع، وسار الحديث في اتجاه آخر.
كان وقع هذه الحادثة على جدي عميقاً، إذ كانت تتمتع بمكانة عالية في عالمها الخارجي. فلا يناقض كلمتها احد، فتشعر ان كل معتقداتها وكل ما تتفوه به هو الصواب عينه. بقيت اباما صامتة على غير عاداتها، كأن الشك قد دخل الى نفسها واصبحت تدرك بأنها ربما لا تملك الحقيقة بكاملها. لكن فترة الشك هذه لم تدم طويلاً. فسرعان ما استرجعت ثقتها بنفسها وعادت الى اسلوبها القديم، واخذت تنتهز المرض لمجابهة مرت الباشا في موضوع آخر تحرز فيه نصراً. غير ان محاولاتها لاستدراج مرت الباشا للدخول في حوار، باءت كلها بالفشل. فقد استمرت مرت الباشا تتجاهل جدي في الجلسات التي كانت تعقدها عند رياراتها لنا مع امي وخالاتي، لا عن غضب او ضغينة، اذ انها نسيت الحادثة تماماً، بل عن عدم اكتراث بالمواضيع التي كان بهم جدي يتحدث بها.

في بادئ الامر استعملت جدي تكتيك الصمت الكلي الذي كانت تعتمد في جلسات الاستقبال متى ارادت اعلان عدم رضاها عما تكون قد قاله احدي السيدات. فكانت كلما اتت مرت الباشا لزيارتنا بمرحها المعتاد، حينها جدي بجفاء. غير ان مرت الباشا كانت تحيىها بحرارتها المعتادة دون اعارة برودتها المقصودة اي اهتمام، ما كان يزيد من سخط جدي ويزيد من صمتها. ومع مرور الايام بدا واصحاً ان الحرب النفسية التي شنتها جدي ضد مرت الباشا فشلت، فأخذت بالتراجع عنها تدريجياً، الى ان حدث يوماً ان التفتت اليها مرت الباشا بتلقائيتها الصريحة وسألتها رأيها في موضوع لا دخل له بالدين او السياسة او الصحة، واجابته جدي جواباً حاز اعجاب مرت الباشا، (ما اذى الى عودة المياه الى محاريها لفترة وجيزة.

كان يتردد أيضاً على بيت جدي آنذاك شاب اسمه "داهش بك" اشتهر في الاوساط الاجتماعية بقدرته على التنويم المغنطيسي والتنبؤ بالمستقبل. لم التق به الا بعد مدة طويلة من تعرفه على بيت جدي، ذلك انه نادراً ما اتي لزيارتنا خلال الصيف، اي عندما كنت امضي عطلاتي في عكا. لذلك سررت عندما سمعت ذات يوم جدي تنادي بصوت متهدج: "داهش بك قادم، افتحوا الباب."

كان آنذاك في اواخر العشرينات من عمره، اسود الشعر، نحيل القامة. اذكر بخاصة عينية النافذتين وجو الصمت والانباض الذي التف حوله، على النقيض من جو المرح ولصخب الذي تميزت به شخصية مرت الباشا.

صوب الي نظرة حادة دون ان يحيني او يتشم.
قالت جدي: "هذا هشام ابن فطمة. رح يروح على المدرسة الداخلية في بيروت."

مد يده مصافحاً وكانت باردة كالثلج.
رأيت بعد ذلك في عكا مرة واحدة بشكل عابر ولم اجتمع به ثانية الا بعد مرور ما يقارب الاربعين سنة في بيروت.
في تلك الزيارة التي تعرفت فيها اليه سلم داهش بك جدي كتاباً كان قد انتهى من تأليفه عنوانه "ضجعة الموت او بين احضان الابدية" وعليه تقديم: "الي عارف بك وعائته الكريمة" تصفحته جدي ووضعت على الرف الذي كانت تضع عليه خالتي الصغرى كتبها المدرسية. بعد ذلك لا اظن ان احداً سوي لمس الكتاب.

كان مجلداً مجليداً متقناً ومطبوعاً على ورق فخيم لماع، توجت صفحته الاولى صورة المؤلف وتلاه اهداء الكتاب بخط رقي اذكر

منه هذه الكلمات: "الى الموت والحياة الابدية". أما نص الكتاب فقد كان مجموعة قصائد كتبت ايضاً بالخط الرقعي ضمن اطار اسود. والى جانب كل قصيدة طبعت رسوم بعضها على صفحة كاملة وبعضها الآخر على نصف صفحة، ومعظمها "ايروتيكي" في موضوعها واخراجها الفني. قرأت بعض القصائد لكن دون ان استطيع فهمها. بدت معقدة الى درجة الغموض الكامل. لكن الصور والرسوم، التي كان اكثرها مستمداً من اعمال فناني عصر النهضة، سحرتني. قلبت الصفحات الملاء الناعمة، وتأملت طويلاً في رسوم اجساد النساء العاريات، فأحسست لأول مرة بذلك الشعور المبهم ازاء الموت واللذة. ما زلت اذكر لوحتين، لا كما شاهدتهما بعد ذلك مراراً في اصلهما الملون، بل كما رأيتهما لأول مرة في كتاب داهش بك: رسم اسود على بياض. كانت الاولى لفينوس بريشة بوتشيلي وهي تصعد من اليم عارية لا يخفي جسدها سوى شعرها الطويل الذي اسحدر فوق كتفيها وتديها الايسر فبقي تديها الايمن عارياً الا من بعض رذاذ. بدت لي فينوس في تقاطيع وجهها الدقيقة ونظرها البريئة وجسدها النحيل تحسداً لطهارة الانثى وبراءتها. اما اللوحة الاخرى فكانت لرسام لا اعرف هويته. وهي لوحة مشهورة تسمى "ليدا والبطه"، التي تظهر فيها ليدا المكتنزة الجسد وهي تستلقي عارية فوق شاطئ بحيرة هادئة تحيط بها الاشجار وقد حط بين ساقها طائر ايض يسحب عنقه الطويل ليتكئ برأسه بين تديها. جذبتني هذه اللوحة في الاتجاه المعاكس، ففي حين بعثت فينوس بوتشيلي في نفسي مشاعر الطمأنينة والارتياح، اثارت في صورة ليدا شعوراً قوياً من الرعدة والقلق. اردت التأكد من اني رأيت هاتين اللوحتين في كتاب داهش بك فعلاً واني لم اتخيلهما. فقضيت أشهراً في تقصي الكتاب في

المكتبات الخاصة والعامة فلم أجده، الى ان وقعتُ على نسخة منه قبل ان ادفع مخطوطتي الى المطبعة في مكتبة صديقي الدكتور سمير الصليبي في بيروت. فتحت الكتاب بأيدي مرتجفة. آخر مرة نظرت اليه كنت في العاشرة. طالعتني صورة ليدا تماماً كما تذكرتها، الا انها لم تكن مضطجعة فوق "شاطيء بحيرة تحيط بها الاشجار"، بل تمددت بين ظلال سوداء احاطت بها من كل جهة فزادت من بياض جسدها ومن عُريها. اما فينوس فلم تكن عارية اطلاقاً، فالصورة التي جابهتني الآن كانت صورة صغيرة اقتصرت على وجهها الجميل البريء وشعرها الاسود الطويل تدفعه الريح الى الجانب الايسر من وجهها. لماذا صورتها عارية؟ ولماذا وصفتها بالراءة ووصفت ليدا على انها نقيضها؟ هل لأن جسدها لم يظهر في الصورة بينما بدت ليدا عارية تماماً؟

تذكرت كتاب "ضجعه الموت" وهاتين اللوحتين عندما التقيت بداهش بك بعد مرور سنوات طويلة. كان ذلك في اوائل السبعينات في احدى زياراتي الصيفية الى بيروت. سألت امي يوم وصولي ونحن نحسني القهوة عما حل بداهش بك.

حتى تلك اللحظة وطوال تلك السنوات لم يخطر اسم داهش بك على بالي لمرة واحدة. نظرتُ الي باستغراب. قالت انها سمعت انه يقيم في بيروت منذ ١٩٤٨.

في اليوم التالي وبحدود الساعة الثالثة بعد الظهر، كنت مثل معظم سكان بيروت في ذلك الوقت من اليوم، مستلقياً في السرير اطالع الصحف والمجلات واحاول ان اغفو قليلاً، حين رن حرس الباب الخارجي، وسمعت الخادمة تفتح الباب ثم تأتي الى الغرفة المجاورة وتقول لوالدتي: "السيد داهش بك يسأل عن السيد هشام."

قلت في نفسي، لا بد ان والدتي قد ارسلت اليه خبراً تعلمه
بأني موجود في بيروت واني سألت عنه، فأتى لزيارتنا.
كان جالساً في زاوية معتمة من غرفة الاستقبال الصغيرة.
ورغم حرارة الجو فقد خُيِّلَ اليّ اني شعرت بلفحة من الهواء البارد
تهب في وجهي لدى دخولي الغرفة. وقف مسلماً بصمت وشعرت
بالانقباض ذاته الذي شعرت به عند لقائنا الاول في عكا منذ سنين
طويلة. ما ان جلس حتى رأيت انه قد تغير كثيراً. كان أثقل وزناً،
وفي تقاطيع وجهه علامات الكبر. إلا أن عينيه النافذتين لم تتغيرا.
”اتذكرني؟“

”بالطبع اتذكرك.“

وعندما جاءت والدتي، تحدثنا قليلاً، ثم غادر على ان نلتقي
ثانية.

سألت امي كيف تمكنت من الاتصال بداهش بك.

”انا لم اتصل به.“

”اذن ما الذي جعله يزورنا؟“

”لست ادري.“

اجتمعت في تلك الصيفية بداهش بك مرتين. او ثلاث مرات.
وكان اجتماعنا في المرة الاخيرة قبل وفاته بمدة قصيرة، في احد مقاهي
الروشة في احدى فترات الهدوء الاولى بعد انفجار الحرب الاهلية.
جلسنا في مقهى ”ديبو“ وكان خالياً من الرواد. طلبنا فنجان قهوة.
لكنه لم يمس فنجاناه. سألته اذا كان يذكر كتابه ”ضجعة الموت او
بين احضان الابدية“. ابتسم وسألني كيف اطلعت على الكتاب،
فأخبرته. قال بصوت خافت: ”حماقات شباب.“

”لكنه كتاب فذ. كان له تأثير غريب علي.“

وبعد صمت قصير قال: ”الناس بتحب الروحانيات.“

”كذلك الصور والرسوم اللاروحانية!“
 ”الناس بتحب الروحانيات خصوصاً اذا كانت مرتبطة
 باللاروحانيات.“

ثم ابتسم ابتسامة فترة وقال: ”لا تظلمني. ولا تظلم الناس.
 انا لم اكذب على احد. الناس تريد الهرب. الى الماضي. الى
 المستقبل. الى العالم الآخر. الناس تريد الاتصال بالأرواح للخروج
 من كابوس الحياة. الصوت الذي يسمعه من عالم الموتى هو
 صوتهم، صوت الموت الصادر من اعماقهم.“



شاطيء عكا كما يبدو في الصيف أمام بيت جدي. إلى اليمين المنفجر ثم مزار الشيخ حر الدين والنيل يبدأ حيث يجلس الصيادون. في الصورة إلى اليمين أدناه أنا في الثالثة أو الرابعة من العمر في حضن مربيتي جمال. عندما عثرت على هذه الصورة بين أوراق والدتي عرفت سبب تولمي بـ T.E. Lawrence. ان وجه جمال هو وجه لورنس. في الصورة الثالثة انا وكامل وحسن، واكرم خلفنا. الصورتان التقتان من موقعين على الشاطئ ذاته.





بركة الشيخ أسعد والسور وجل الكرمل في الأفق البعيد. تبدو النفايات على الشاطئ،
والامتداد الذي بناه الاسرائيليون بعد احتلال المدينة

صورة كارت بوستال التقطت في اوائل العشرينات لشاطئ خليج عكا المضاء تبدو الى
اليسار ووراءها برج الساعة.

St JEAN d ACRE
Acca





أما وكامل ووراءها مسجد
عكا المركزي (القلعة)



أعلى يسار. ميدانية
اللبابيدي وفي الخلف صورة
جامع الجزائر

السور عند مدخل
الجن. ويظهر مركب
شراعي يتوجه إلى ميناء عكا.



منظر البحر قبل الميعب كما يبدو من شرفة بيت جدي

ألتقطت هذه الصورة لبيت جدي في السميات وقد تغيرت واجهته وغطي
حجره الأبيض بالاسمنت. كانت
خرفتي إلى أقصى اليمين.



عكا داخل السور. القلعة إلى
اليمين وجامع الجزار إلى اليسار.





جدي في لباسه الرسمي.



جدي وجدتي ١٩٤٨



خالتي نطمية وسعادت مع مربيتها السويسرية في اسنابول

حوالي سنة ١٩١٠.

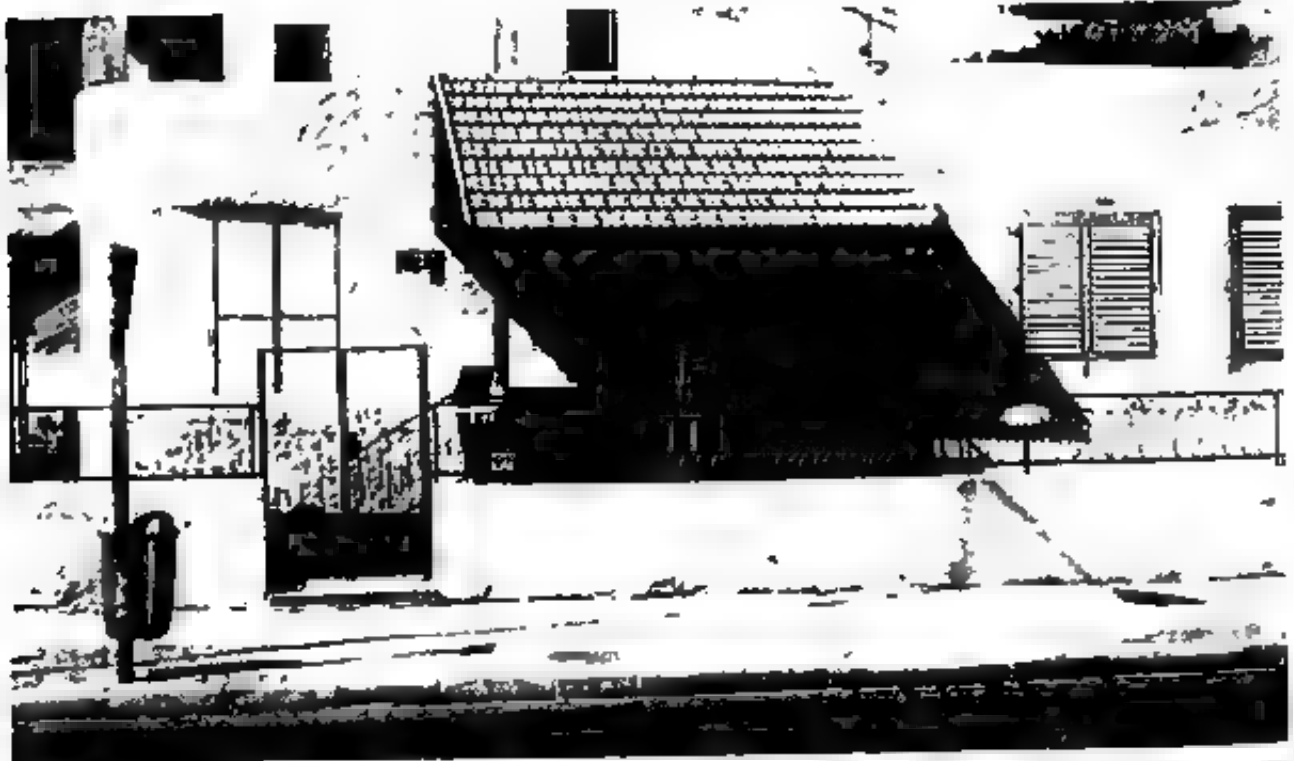


من اليمين وقوفاً خالتي سعادت، جدي، والدتي، خالتي نطمية، والصبي أحمد خادم أخي خالد، الخالسون جدي، أخي خالد، وعمتي نجية (شقيقة جدي)، التقطت هذه الصورة بعد سقوط عكا وبلو العاشة إلى بيروت في ١٩٤٨. أخي خالد توفي في مطلع ١٩٤٩ بسبب عدم توفر الأدوية التي كان يتناولها، وجدي توفي بعده بضعة أشهر. لم يبق من عائلة عارف الصولي إلا والدتي وخالتي نمت.



خالتي الصفري نعمت، تزوجت سنة ١٩٤٨ من القدس مع زوجها وأولادها الثلاثة لي مصر

بيت جدي سنة ١٩٨٧.





الغلاف الخارجي للكتاب عبر المجلد
وقد بدت فيه لوحة لامرأة عارية الصدر
تمسك بطفل ميت



«ليدا والبطء» بريشة كوريجيو بالحجم ذاته تقريباً
الذي تظهر فيه حل الصفحة ١٢٦ من الكتاب وقد
أحاطت بها الظلمة التي لم تظهر في الصورة كما
تذكرها.

الصفحة الأولى من «ضجعة الموت»
أو «بين أحضان الأبدية»
والسمر الباهظ للكتاب «دون تجليد»



وجه فينوس بريشة بوتشيلي كما يظهر بالحجم ذاته
من «ضجعة الموت» صفحة ٢٦ وقد اقتطعت بقية
اللوحة التي تظهر البحر والسحاب والملائكة.



WHEN IN ACRE
DO NOT MISS
TO VISIT

AWAD BROTHERS
RESTAURANT

Meals refreshments & Afternoon
Teas may be served at
any time

THE HISTORY OF
ACRE

BY

SALEEM R FARAH
Nazarelli

and

M N KHOURY

Acre

1936

Only Light Binding
PRICE 50 MILS

كراس من حكا وضعه سليم فرح مع م. ن. خوري
باللغة الانكليزية سنة ١٩٣٦.



كانت امي في السابعة عشرة من عمرها عندما تزوجت. انجبتني ثم وُلد لها خالد أخِي الأصغر مِنِي وَلَمَّا تَکْمَل العشرین. انها في الصورة على الغلاف مع والدي في سوق الغرب في جبل لبنان في صيف ١٩٣٣ او ١٩٣٤ وهي آنذاك في سن ابنتي ناديا الآن.

وُلد اخي خالد منحرف الصحة وبقي معظم حياته تحت رعاية الاطباء لا يخرج من البيت الا نادراً عندما يكون الطقس دافئاً وحين يشعر بقوة كافية للخروج، فلم يعرف حياة الطفولة ولم يكن له اصدقاء يلعب معهم سواي. وعندما كبرت ودخلت المدرسة الداخلية في رام الله اصبح وحيداً لا رفيق له سوى امي وافراد العائلة الكبار، فركزت اهتمامته على اشياء لا علاقة لها بالطفولة والعابها. فأصبح، مثلاً، خبيراً في انواع الادوية التي كانت تعطى له. يحفظ اسماءها والعوارض التي تعالجها والكميات التي ينبغي تناولها منها. وصار له هوايات محددة، تتبدل بين فترة واخرى. كانت آخر هواياته، قبل

وفاته في سن التاسعة عشرة اقتناء الساعات على انواعها. استهوت ساعات اليد وساعات الجيب وساعات الحائط وخاصة الساعات "الكبرى"، مثل ساعة ساحة الحناطير في منتصف مدينة يافا وساعة الكنيسة الارثوذكسية القريبة من بيتنا الذي انتقلنا اليه في حي العجمي في الاربعينات. كان ينتظر سماع نشرة الاخبار ليقارن نوقيتها بدقات ساعة الكنيسة وليضبط عليها ساعة يده وساعة الجدار في قاعة الجلوس وساعة كل فرد من افراد العائلة. وبسبب سوء صحته مُنع من تناول معظم المأكولات التي كنا نتناولها في البيت، (ما جعله خبيراً بالطعام واشكاله وكيفية طبخ الاطباق المختلفة منه، وبخاصة تلك التي حُرِّم منها. وكان يُسمع له احياناً تناول بعض المأكولات الخفيفة التي كنا نتناولها، ومنها أكلته المفضلة، الفاصوليا الخضراء مع الأرز. وكان، ليضاعف تمتعه بها، يفرِّق الأرز عن الفاصوليا، ويبحث عن قطع اللحم الصغيرة ويضعها جانباً، ثم يأكل الأرز بتأنٍ ثم الفاصوليا واخيراً قطع اللحم الصغيرة. فيمضغها بلذّة وبطء.

كنت في السابعة وكان هو في السادسة عندما أصابتنا حمى التيفوئيد اثناء عطلة ذلك الصيف في سوق الغرب. كانت والدتي تحب سوق الغرب والجبال المحيطة بها، فكنا نغضي معظم اشهر الصيف هناك رغم الحاحي على البقاء في عكا، حيث نتوقف لتمضية بضعة اسابيع عند بيت جدي ونحن في طريقنا الى لبنان. وفي سوق الغرب كنا نقيم في بيت كبير تملكه سيدة لبنانية اسمها الست لبية ويطل على بيروت والبحر وتحيط به حديقة كبيرة. والصورة التي اظهر فيها مع خالد ووالدي التقطت في هذه الحديقة قبل اصابتنا بآيام قليلة.

أصابنا المرض فجأة. وعندما فحصنا الطبيب الذي استدعاه

والذي من بيروت، تم وضعنا في غرفة منفردة. ومنعنا عن تناول الطعام الا اللبن المروّب او اللبنة نلحقها دون خبز. وعندما خفت وطأة المرض سمح لنا الطبيب بمغادرة الفراش والجلوس الى النافذة التي كانت تطل على الحديقة والطريق خلف البيت ومن ورائه الجبل العامر بأشجار الصوبر والمطل على سوق الغرب. كنا نجلس انا وخالد عند النافذة طيلة ساعات النهار نتأمل الحديقة ونتفرّج على العابرين، فكان يحدثني بما يخطر على باله، فيخترع قصصاً طويلة ويستمر بروايتها يوماً بعد يوم دون ان يصل الى نهايتها، ويروي دقائق مغامرات رهيبة كان يقوم بها ابطال مجهولو الهوية وغامضو المصير. ويقدم وصفاً دقيقاً لما كان يرغب في تلك اللحظة من مأكولات كان معظمها محرماً عليه قبل مرضنا على أية حال.

كانت تلك الفترة نهاية مرحلة الطفولة بالنسبة لي. مع دخولي المدرسة افلتت من العالم العائلي الصغير ودخلت العالم الواسع. ولم ارجع الى البيت الا رائراً لقضاء بضعة ايام اثناء العطل المدرسية. وهكذا عندما غادرت البيت في نهاية الصيف بعد نقاهتنا من المرض انتهت علاقتي الحميمة بأخي خالد، وتركته حتى آخر حياته أسير طفولة لم يكن بمقدوره الخروج منها.

بمبارغ الصبر كان أخي ينتظر عودتي خلال العطل المدرسية، فيحسب الايام بالدقة ذاتها التي كان يضبط فيها ساعات نهاره. عند عودتي كنت اجلس معه لبضعة دقائق، ثم اسارع الى الاتصال باصدقائي لترتيب برنامج الايام التالية والذهاب الى سينما الحمراء. فكان كلما رأي في ذهابي وإيابي يحاول التحدّث في احد الموضوعات التي جمعتنا في السابق أو يعمد الى اثارة اهتمامي باحدى العابهِ الجديدة. فكنت اجلس اليه قليلاً ثم انصرف عنه بنائية ذلك السن لأعود مسرعاً الى اصحابي وملاهيّنا.

قبل مغادرتي الى الولايات المتحدة في اواخر سنة ١٩٤٧، وكان قد اصبح شاباً في الثامنة عشرة وانتقل مع والدي الى بيت جدي في عكا بسبب توتر الوضع في يافا وبدء الفصص اليهودي لها من تل ابيب. سألتها عما يريد هدية من اميركا عند عودتي فقال: "ساعة جيب مع سنسال فضي".

لكن خالد توفي قبل وصولي ببضعة ايام. كانت عائلة جدي قد التجأت مع امي وحالد الى بيروت قبل سقوط عكا بايام وأقاموا جميعاً في بيت لسيدة تركية من اقارب جدي كان يقع في رأس بيروت بالقرب من المنارة. قالت امي وهي تستقبلني عند الباب: "بقي يسأل عن ساعة وصولك حتى آخر لحظة."

٢

كان بيت جدي الذي عرفته في مطلع حياتي مبنياً على الطراز القديم، استأجره جدي بعد تقاعده من وظيفته في البصرة. يطل على البحر مباشرة ويحيط بحديقته سور عال. وكان جدي يملك قطعة أرض تطل ايضاً على البحر، لا تبعد كثيراً عن البيت الذي استأجره، اشتراها ليبي فوقها بيتاً على الشكل الذي تريده جدي. ولم يتم تشييد البيت الا بعد مرور عدة سنوات. فدخل جدي المالي كان محدوداً، إذ كان جزء منه يأتيه من تقاعده وجزء ثان من ايراد بستان كان يملكه في طرابلس ومن مزرعة له تقع قرب قرية الذيب تدعى الموارس ضمنها لفلاح وعائلته وشاركهم في محصولها. كان الفلاح، واسمه ابو علي، في الاربعينات من عمره لكن بدا شيخاً هرمًا. كان يأتي كل اسبوع مع ابنه علي راكبين على حمارين محملين

بالخضار والفاكهة، فتستقبلها جدتي بسرور عظيم وتقدم لهما الفطور ثم تستجوب أنا علي عن اسعار المحصولات والمبالغ التي حصل عليها من مبيع ذلك الاسبوع، ثم تأخذ ما يعطيها من نقود وتضعها في محفظة جلدية في حزانيتها في غرفة النوم ويقل عليها لايداعها في اليوم التالي في بنك الأمة. ومما وفّرته جدتي على مرّ السنين تمّ بناء البيت الجديد سنة ١٩٣٥ على أحدث طراز بإشراف المهندس اللبناني اميل البستاني والذي اصبح رجل الأعمال الشهير فيما بعد.

كانت تقع "مدرسة" الست افلين بين بيت جدتي القديم وبيته الجديد. وهي عبارة عن غرفة كبيرة خصصتها الست افلين لتدريس الاطفال ورعايتهم من سن الثالثة او الرابعة حتى التاسعة او العاشرة.

بدأت حياتي الدراسية في الرابعة من عمري حين التحقت بمدرسة الست افلين. اذكر ذلك اليوم بوضوح. استيقظت باكراً وتناولت الفطور الذي كانت تعدّه لي خالتي سعادت (فهي كانت تستيقظ دائماً قبل مطلع الفجر)، وجلست انتظر والدتي لتأخذني الى الست افلين. كنت اعرف الست افلين جيداً فكانت كثيراً ما تزورنا في البيت، وكنت اعرف المدرسة ايضاً اذ كنت اراقب الاطفال يلعبون امام بيت الست افلين في فترات الفرس العديدة التي كانت تسمح بها. فلم يكن التحاقني بالمدرسة من اختبارات مرحلة الطفولة الاليمة، بل امراً مفرحاً توقعته بشغف. امسكت بيد امي بشدة وعبرنا الشارع الذي يفصل بيت جدتي عن المدرسة. كانت الست افلين تنتظرنا امام الباب. غمرني شعور قويّ عند دخولي الغرفة ورؤيتي عشرات من الوجوه الصغيرة تلتفت إليّ وتنظر مبتسمة. كان ذلك الشعور نفسه الذي انتابني عند دخولي اول صف درّسته بعد التحاقني استاذاً في جامعة جورجيتاون في سنة ١٩٥٣ - احساس

بالقوة والرهبة في آن. اخذتني الست افلين بيدي واجلسني الى جانبها، وبقيت امي واقفة عند الباب. لَوَحَتْ بيدها مودعة. نظرت اليها وكان قلبي يلق بشدة. لا اريدها ان تتركني، لكنني في الوقت نفسه لا ارجب في مغادرة هذا العالم الجديد. كان ذلك اول فرق حقيقي بيننا. أدركت عندما اغلق الباب ان فراقنا هذه المرة يختلف عن اي فراق في السابق. انه بداية انفصال سيستمر العمر كله. لم اشعر بالغضب لانها تركتني، فقد احسست اني أيضاً تركتها.

٣

عند عودتنا الى يافا في مطلع الخريف، سجلتني امي في روضة الاطفال الانكليزية، في حي الملكان، حيث كان يقطن الاجانب الانكليز والالمان في يافا، وكانت تعرف بمدرسة المس باين التي كانت تديرها بمساعدة معلمتين بريطانيتين وفق احداث النظريات في تربية الاطفال.

هنا بدأت حياتي خارج عالم لعائلة الذي لم اعرف غيره. فمدرسة الست افلين كانت امتداداً للمحيط العائلي. لكن هنا وجدت نفسي لأول مرة بعيداً عن امي وافراد عائلتي في محيط لا عهد لي به. حولي اطفال كلهم في مثل عمري، نتحدث الى بعضنا بعضاً دون استيحاء او خجل، بعكس ما كنا نفعل مع الكبار، فنكتشف عالماً جديداً سرعان ما يتلعبنا بالعبه وملذاته وندخله ركضاً وقفزاً احراراً فرحين. انها الحرية الاولى، نتذوقها لأمد قصير فلا ننسى طعمها، ثم نمضي بقية العمر في التفتيش عنها.

تحدثنا معلمتنا الانكليزية بلهجة رزينة كأننا راشدٌ، لا تقبلنا

ولا "تدلّعنّا"، بل تجلس اليّنا وتفسر لنا ما علينا ان نفعله، ثم بعد الدرس تتركنا للعب كيفما نشاء. ورغم عدم تمكّني من اللغة الانكليزية (وكل ما تعلمته عند الست افلين لم يتعدّ قراءة بعض الجمل البسيطة وحفظ حروف الابدجديّة) فحين تحدّث اليّنا المعلمة بالانكليزية بصوتها الهاديء ولفظها الواضح شعرت اني افهم ما تقول. وهكذا تعلمت اللغة الانكليزية بشكل تلقائي، دون العذاب الذي رافق دراستي العربية الفصحى في ما بعد.

٤

كنت احياناً عنيفاً في منهجي النقدي الذي سلّكته في كتاباتي حول النظام الابوي واثره في تطور شخصية الفرد في مجتمعنا العربي. وربي قسوت على الاب في تشخيصي له سلطة ورمزاً. لا اريد هنا ان اظلم الشخص الذي كان ابي. فهو في ذاكرتي اباً حنوناً، وله في قلبي مكانة محفوظة لا يغيرها الزمن. انا الآن مثله أب، رغم اني لم اختر ان اكون "اباً"، فنحن نصنع آباء قبل ان يولد ابناؤنا بزمن طويل.

اذكر يوماً ما طراً وعاصفاً في مدرسة الفرندز للبنات في رام الله. كانت سنتي الاولى او الثانية هناك. الساعة تقارب الثانية بعد الظهر. ندرس الجغرافيا في صف من لباط، ولا يزال امامنا ما يقرب الساعة قبل موعد الخروج. انظر الى المطر الدافق من خلال النافذة الكبيرة ويزداد غمي. لن نستطيع اللعب في الخارج بعد الصف وسنضطر للذهاب الى النزل مباشرة وقضاء ما تبقى من الوقت قبل العشاء في الاستماع الى مس حسّون تقرأ علينا قصة

اخرى. كان عدد الاولاد من يافا كبيراً (أذكر منهم وليد وعمر البيطار، ياسر وصفوح السعيد، جورج كرفيوتي، فرح تماري). كنا في مدرسة البنات حوالي عشرين طفلاً نقيم في نزل صغير استأجرته المدرسة بالقرب من الكنيسة البروتستانتية برعاية مس حسن ومساعدتها مس عصفور ولا اذكر ان احداً من الاطفال علق على هذا الشبه القريب بين الاسمين، ربما لاننا ما زلنا قريبين الى عالم الطبيعة. وزعت مس حسن اليافاويين على الغرف الاربع في النزل التي اتسع كل منها خمسة اطفال، كي لا يشكلوا الاكثية في اية غرفة واحدة. ووضعتُ انا وجورج كرفيوتي في غرفة واحدة تطل مباشرة على الكنيسة الصغيرة. كان جورج من عائلة يونانية تقيم في شارع الملك فيصل بالقرب من بيت عمر ووليد البيطار. وكان جورج يتكلم باللهجة اليافاوية مثلنا تماماً، ولم نشعر لحظة الا انه واحد منا. كان هو وفرح صديقين حميمين وانتقلا سوياً الى مدرسة الصبيان قبل انتقالي اليها بسنة واحدة.

كان يجمعنا، نحن اطفال يافا، حنين الى اهلنا وامهاتنا وذكرى حياتنا في بيوتنا وبلدنا. كنا نجلس في الايام الماطرة لتحدث بأسي عن كل ما حُرمتنا منه في هذا المنفى: طعام والدتنا، بحر مدينتنا وشوارعها، وسينما الحمراء. وتعدّ الايام لقدم العطلة المدرسية ونرسم لها الخطط والبرامج. وكلما اقرب موعدنا ازددنا مرحاً وحماساً. وكنا في يوم المغادرة نستيقظ باكراً ونغتسل بالماء البارد تحت أنظار مس حسن ومس عصفور، ونهرع لتناول الفطور في القاعة المخصصة لنا في الطابق الارضي من بناية المدرسة الرئيسية، ثم نعود الى النزل ونأتي بحفائبنا وننتظر امام بوابة المدرسة الخلفية قدوم السيارات التي ستقلنا الى يافا. كنت في اكثر الاحيان ارافق عمر ووليد في سيارتهما اللويك السوداء، فيجلس وليد في المقعد الخلفي،

نلّوح الى مس حَسُون ومس عصفور وننطلق الى يافا، ونحن لا نقدر على كبح جماح الفرحة الذي يمتلكنا، فناخذ في التعارك الروهي في ما بيننا ويعلمو ضحكنا وصياحا ويحاول السائق انور تهديتنا لكن دون جدوى. كانت عطلة الربيع عطلتنا المفضلة، تأتي بعد انتهاء الشتاء المعتم الكئيب، عندما تصبح السماء العاصفة زرقاء صافية والغيوم السوداء تلال من القطن الابيض وتمتليء الارض بالزهور الحمراء والصفراء والبيضاء وتعجّ التلال الجرداء المحيطة برام الله بألوان الربيع الفرحة، نمر بين هذه التلال في طريق اللطرون وهي خالية من السيارات، ونلحّ على انور السائق ان يزيد من سرعته، فيلبي طلبنا بحماس، وتنطلق السيارة بسرعة جنونية مثيرة خلفها عاصفة من الغبار.

كانت بداية العطلة عيد ونهايتها حداد. يوم العودة الى المدرسة اسمع صوت السائق انور بعد ان يقرع جرس الباب. احمل حقيبتين وانزل الدرج ببطء لا التفت الى الوراء حيث وقفت امي: "ما تنسى تلبس الجرسية."

اجلس في السيارة الى جانب عمر بصمت. السائق انور يحاول التخفيف عنا ويحدثنا ضاحكاً، ولا نرد عليه. وعندما نصل الى الدد يقول وليد: "بعد نص ساعة نكون في رام الله."

يشد هطول المطر ويزيد قصف الرعد ولمعان البرق. مس لبّاط تنظر بقلق من خلال النافذة وتستمر بالكلام. يفتح الباب فجأة

وتدخل مس حنوش رئيسة المدرسة، وتتهامس مع مس لباط. اري مس لباط تنظر حوي، ثم تشير الي بيدها. تأخذني مس حنوش بيدي ونخرج والجميع ينظر الينا بفضول.

والدي تلقن من القدس وسيصل خلال ساعة ليأخذني معه الى ياف لقضاء عطلة آخر الاسبوع. لا اصدق اذني. اكاد اطيح فرحاً.

”والآن ستأخذك مس حسون للاستحمام.“

ها هي مس حسون بانتظاري في مكتب الرئيسة. أمسكت بيدي وركضنا تحت المطر الى التزل. وحال وصولنا بدأت مس حسون باشمال نار الحمام. حاولت ايجاد مخرج من الاستحمام.

”لكن تحمّنا يوم السبت . ساستحم في البيت.“

لم تعرني مس حسون اي اهتمام. فتحت حنفية الماء ووضعت يدها تحت الماء لتأكد من حرارتها. كانت تعرف كم كنا نكره الاستحمام. مساء كل سبت كان موعد الحمام الساخن. مس حسون ومس عصفور يتحولان الى نساء من الامازون. يمسكان بنا الواحد تلو الآخر ونحن عراة كما خلقنا ربنا ويأخذان بتليقنا بالصابون من الرأس الى أخمص القدمين، وتساعدهما في ذلك امرأة ضخمة على جانب كبير من القوة اسمها ام نبيل تعمل في مدرسة البنات، وكان اختصاصها صب الماء المحرقة بحرارتها فوق رؤوسنا والامساك بنا حتى لا نفلت من قبضتها الفولاذية وتمنعنا من القفز فوق حاجز البانيو. كان الصراخ والعويل يملآن التزل طيلة فترة الاستحمام ولا ينتهيان الا مع خروج آخر صبي من الحمام. كانت مس حسون تتفحصنا واحدا واحدا لدى خروجنا من الحمام حتى تتأكد من اننا مررنا مس تحت يد ام نبيل، بعد ان اكتشفت ن هناك من يدخل الحمام بعد ان بلل شعره فيخرج دون المرور تحت يدي ام نبيل.

”احن رأسك،“ نقول مس حسون.

يعقصني الماء كالعقرب في اعلى رقبتى ثم يمتد الى سلسلة
ظهري . لكنني هذه المرة لا اصيح ألماً . الفرح يغمرني . سأنام الليلة
في فراش في بيتنا في يافا، وسأستيقظ على هدير البحر، سأنزل الى
البلد مع والدي، وألعب مع سعيد طالب ابن الجيران .

أجفف حسمي بالمنشفة البيضاء الكبيرة وارتيدي جرسية من
بين العشرات التي صنعتها لي والدي في ساعات نوقها اليّ منذ
التحاقى بمدرسة الفرندرز . وتنزل مع مس حنون الى مكتب مس
حنوش لانتظار ابي . توقّف المطر وظهرت شمس الشتاء . اراها
صغيرة في الافق من نافذة المكتب . لكن الريح الشهالية ما زالت
تهب بشدة . فيما الاشجار تتحجب .

ارى السيارة . ينزل ابي منها ويتطلع حوله . مس حنوش
تناديني . ركض اليه واحيط رقبتة بذراعي . تقول مس حنوش ونحن
نركب السيارة : "يوم الاثنين صباحاً . لا تتأخر" .

كانت السيارة من نوع "بليموث" موديل ١٩٣٥ . كنت ، مثل
بقية زملائي ، خبيراً في انواع السيارات وخصائصها . جلست في
المقعد الوثير الى جانب والدي وسارت بنا السيارة ببطء في الشارع
المحدر . خارج رام الله التلال جرداء والشمس تحجبها الغيوم
الرمادية . فرح غامر يطغى عليّ . انظر الى ابي واشعر اني اسعد
مخلوق في الوجود . في تلك اللحظة كان حبي له لا يضاهيه اي حب
لإنسان آخر .

سنة ١٩٥٤. كان يقيم مع اخي نظام في بيت مبني من الحجر الابيض بالقرب من الدوار الثاني. في المساء هبطت بي الطائرة الآتية من لندن في المطار القديم. لم اجد احدا بانتطاري في قاعة لاستقبال، فانتقلت في سيارة اجرة انطلقت بي في الشوارع المظلمة. كان البرد قاسياً بشكل لم اعده حتى في عز الشتاء في اميركا. استقبلني اخي نظام بدهشة وحرارة، ثم علمت ان برقيتي التي ارسلتها قبل مغادرتي واشنطن لم تصله.

اخذني الى غرفة ابي. وكان جالساً امام المقل يرتدي عباءة صوف وعلى راسه قلنسوة تغطي اذنيه. كم تغير شكله، يكاد لا يستطيع القيام من مقعده لمعانقتي. في هذه الغرفة توفي امام المقل. دهمته السكتة القلبية وحيداً. وجده اخي نظام مستلقياً الى الخلف. ظنه نائماً عند دخوله الغرفة.

عانقتني بعطف وسألني اذا كنت أشعر بالبرد ثم اجلسني الى جانبه.

لم يسألني عن اميركا او عن عملي في الجامعة او عن احوالي الخاصة. لم يبق في حياته الا الحاضر الانى او الماضي السحيق، وكنت خارج كليهما.

عاملني بلطف ولياقة، كأنني ضيف جاء لزيارته. جلست معه واخي نظام نتحدث عن يافا وفلسطين. لم يُبدِ اي اهتمام بالوضع السياسي او التطورات المتعلقة بالقضية الفلسطينية. قال: "في الربيع سيدفأ الطقس."

واخذ يتحدث عن العودة الى يافا ثم قال: "أعرف ان عمك شفيق بقي في البيت. كل شيء في البيت بقي كما تركناه." كان لديه مجموعة من السجّاد العجمي اقتناها عبر السنين. عندما اكتست ارض البيت كلها بالسجّاد، راح يعلق السجاد على

الحيطان، مما اضفى على بيتنا جو مخزن للسجاد العجمي. لم يكن يدري ان شقيق قد أخرج من البيت وان اليهود قد وضعوا يدهم على البيت وما فيه.

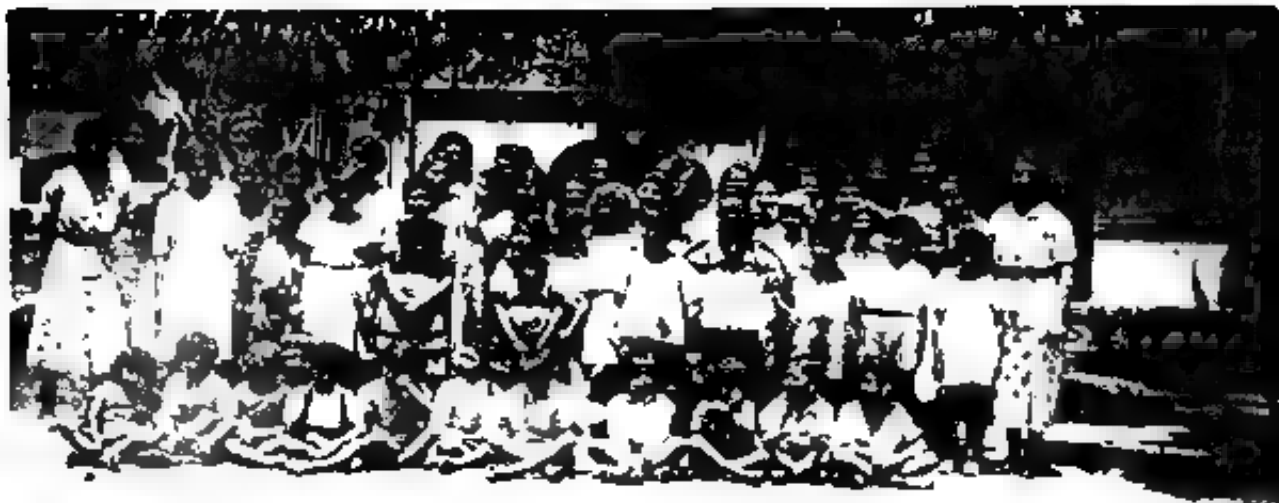
”هل تتذكر عبير زهر البرتقال في الربيع؟“

كان يتذكر اريج الساحر كان يسري في الشوارع ويدخل البيوت ويعو فيها ليلاً/هاراً لأسابيع، فتتغير نفسية سكان المدينة، وهذا ما يسميه الفرنسيون ”جوا دو فيفر“: مجرد العيش يصبح لذة لا تُصاهى. هذا ما يتذكره الجيل الذي نزع عن يافا سنة ١٩٤٨، بعبيرها المسكر وسماها الزرقاء وبحرها الصاخب. من هنا تعلق اهل يافا بمتج الحياة، بحبهم للرياضة، وبخاصة السباحة وكرة القدم، ولولعهم بالسينما والمسرح، ولذتهم في الجلوس في النوادي والمقاهي المنتشرة في انحاء المدينة. كان مقهى ابو شاكوش في شارع جمال باشا بالقرب من بناية البريد مقهى والدي المفضل. كان اخي نظام من اشهر لاعبي كرة القدم في فلسطين و**بطل التنس** لسنوات عديدة.

بشتد عصف الريح في الخارج. والدي يراوده النوم. يرافقه نظام الى سريره. آوي الى فراشي في الغرفة المجاورة واحس بالصقيع يلقيني. انام نوماً متقطعاً حتى مطلع الفجر. توقظني الخادمة وفي يدها كوب من الشاي. ارتشفه واسنانى تصطك من البرد.

بككت عينا والدي لدى فراقنا. قلت له اني سأراه في يافا عند زيارتي القادمة. طبطب على خدي بحنو، كما كان يفعل عندما كنت طفلاً.

”باذن الله يا حبيبي.“



صف الحضانة في مدرسة مس باين في يافا. انا احلس الاول من اليمين واسماعيل دجاني
يجلس الاخير الى اليسار.

في الرابعة او الخامسة من عمري في يافا.



انا وغالد مع والدتي في حديقة بيت الست لينة سنة
١٩٣٤ في سوق الغرب.





ولدت في عائلة جاهزة: شقيقي نظام ونظيم أثناء
دراستهما في الجامعة الأميركية في بيروت. شقيقي الكبرى
جُطاف في لباس مدرسة سكوتز كوليج في صنف. والدتي
ووالدي في بيتا في المشية سنة ١٩٣٤ وقد بدأ السجاد
يشلق جدران البيت. شقيقي الصغرى هفاف لمحضني
واخي خالد في سوق الغرب صيف ١٩٣٣.





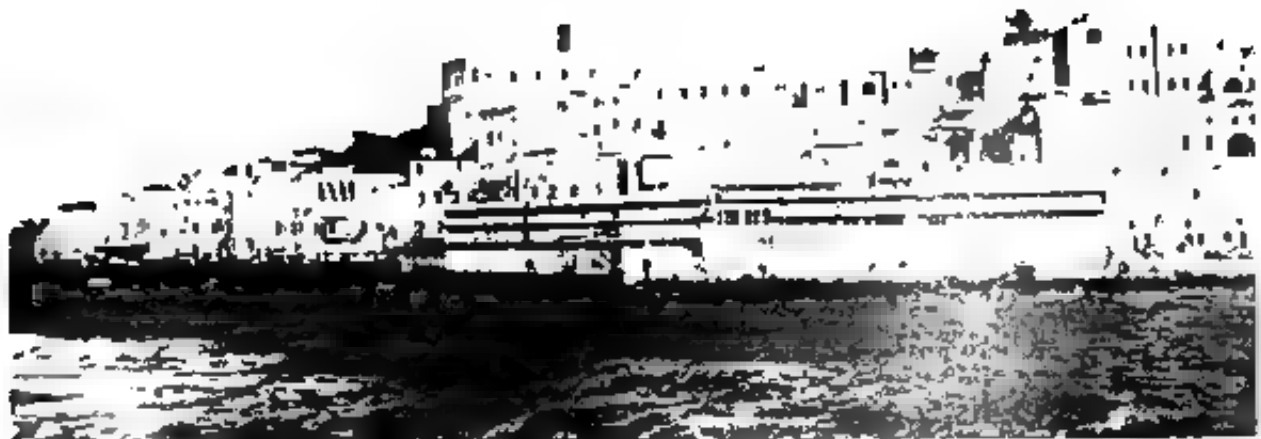
والدي يجلس الثالث من اليمين
عندما كان حاكم صليح يافا مع أعضاء
المحكمة الانكليز واليهود وخلفهم
الموظفون.



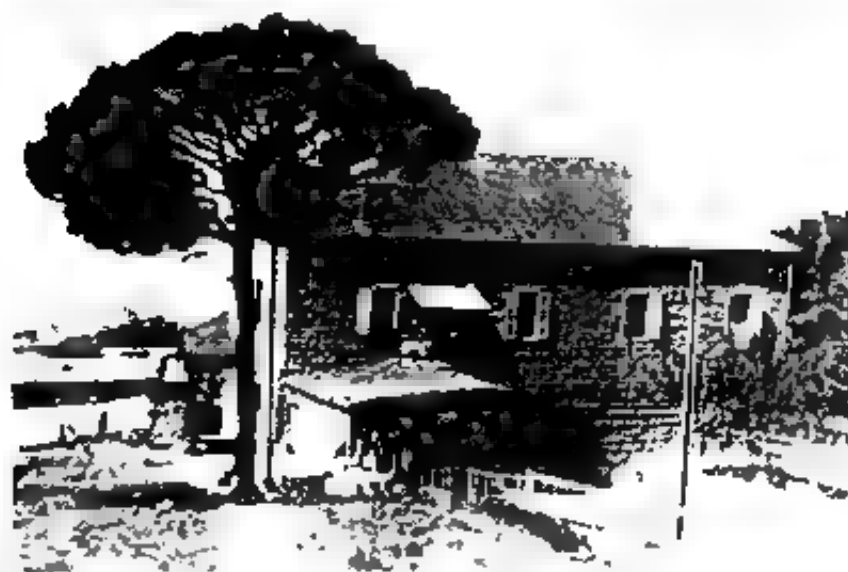
والدي يقف الى اليسار بتيابيه الازرق
في رحلة صيد بالقرب من يافا.



اقف امام والدي ويسدو ورامنا
شاهور حانا. الى يمينها صديقتها
المحبيمة ألفت سارة (زوجة حمير
اليطار) وإلى يسارها ام هاشم والدت
ألفت سارة وخلفها اختي صفاء.



ميناء يافا والبلد القديمة كما يبدوان اليوم.



بيت الست لبيبة في سوق
الغرب حيث كنا نحضي فصل
الصيف وقد وقف اخي نظام
في الامام بلباس التنس.



بيتنا في حي الحجمالي.
التقط هذه الصورة صديقي
وجارنا في يافا زاهي خوري في
صيف ١٩٩١.



منظر عام لرام الله في الستينات.



مدرسة الفرندز للبنات، البناية الجديدة. في
الغرفة الكبيرة ذات الشباك الواسع حيث تعلمت
مبادئ اللغة العربية من كتاب تحليل السكاكيني
الذي كنا ندعوه «راس روس».

مكتبة مديرية المدرسة ما زال في الطابق
الأول التي ظلت هذه الصورة خصباً لهذا
الكتاب في مطلع سنة ١٩٩٣ البناية والأشجار
تلتصقون كما اذكرها دائماً.





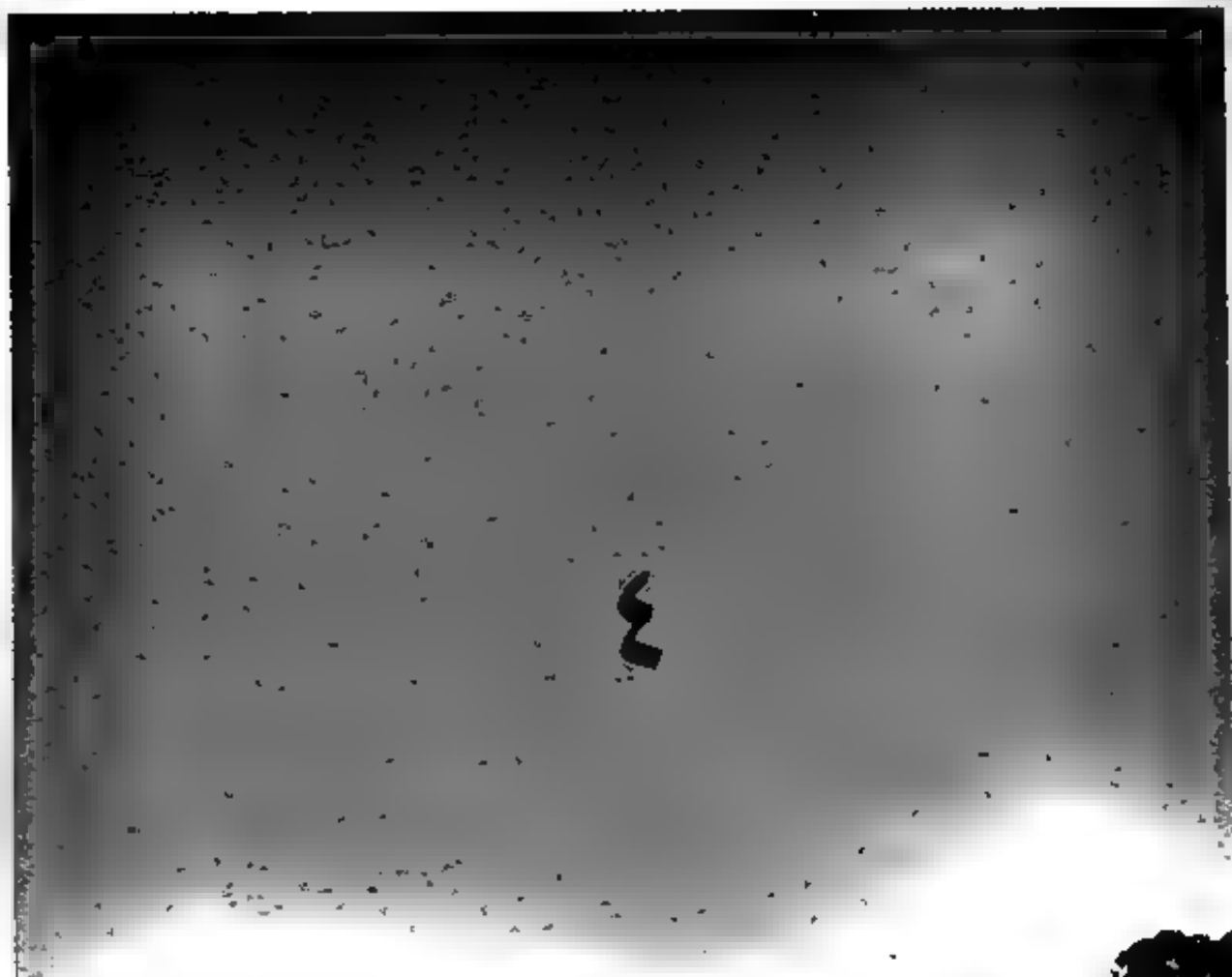
التقطت هذه الصورة للمعب كرة القدم سنة ١٩٣٨. في الخلف الى اليمين تبدو البناية التي كان يلعب فيها الطلبة الداخليون ووراءها البناية الرئيسية.



بناية المدرسة الرئيسية كما هي الآن، لم يتغير منها شيء، الى اليسار المدخل ومكتب الرئيس طوطح



مدرسة القرنفلز للصبيان كما تبدو في ١٩٩٣.



في نهاية صيف ١٩٣٨، وكنا ما نزال في عاليه، كانت الثورة ما تزال قائمة في فلسطين، فاستقر رأي أبي ألا نعود الى يافا حتى تهدأ الحالة. فاستأجر شقة صغيرة في رأس بيروت على مقربة من المنارة (بجانب معهد غوته الألماني اليوم) وسجلني في المدرسة الاستعدادية (الـ I.C.) التابعة للجامعة الأميركية. منذ ذلك الحين أصبحت بيروت بلدتي الثالثة، فيها أتممت دراستي الثانوية والجامعية وتعرضت للتجارب التي كان لها أكبر الاثر في تكوين شخصيتي الراحدة: الدراسة التي تلقيتها خلال تلك السنوات، الصداقات التي اقمتها مع اشخاص ما زالوا اقرب الناس اليّ، الحب الذي عرفته فيها، والوعي السياسي الذي تملكته وتملكني.

كانت مدينة بيروت آنذاك مدينة ناعسة، تتكىء على شاطئ البحر الازرق بتراخٍ وكسل. عدد سكانها لا يتعدى ربع عدده اليوم شوارعها نظيفة حالية من صخب الجاهلير وضجيج

السيارات، الا في ساحة البرج ورأس النبع. كانت معظم السيارات من نوع الفورد "ابو دعة"، تستعمل سرفيس للمناطق التي لا تصلها الترام. وكان الترام الوسيلة الرئيسية للتنقل على ثلاثة خطوط: خط المنارة/فرن الشباك، خط النهر/الدورة، وخط البسطة/باب ادريس، وكلها تلتقي في ساحة البرج، قلب المدينة حيث دورالسينما والمقاهي والمطاعم البلدية وسوفي بيروت المشهورين، سوق الخضار في الجهة الجنوبية خلف سنما ركس، والسوق العمومي في الجهة الشمالية خلف مركز الشرطة.

اما حي الفنادق والمطاعم والملاهي الليلية فكان يمتد من عين المريسة الى آخر نزلة باب ادريس. وكان افخم فندقين في المدينة اوتيل سان جورج واوتيل نورماندي. واهم مطعم في عين المريسة لوكولوس فوق مكتبة زيمانسكي لصاحبها اليهودي الذي نقلها الى القدس حال اندلاع حرب الـ ٤٨. وكان ثمن الوجبة الكاملة في اللوكولوس لا يتجاوز الثلاث ليرات. اما اهم المطاعم البلدية مطعم البحري، ويقع على البحر مباشرة عند نهاية خط البسطة/باب ادريس ويشرف على الخليج الصغير الذي رُدم اثناء الحرب الاهلية في نهاية السبعينات والذي انتشرت على شاطئه البارات والكباريات واشهرها آنذاك الكيت كات والليدو. اما المقاهي البلدية فكان احملها في رأس بيروت، تمتد من الحمام العسكري الى الروشة والرملة البيضاء، ولم يبق منها الآن الا قهوة الروضة الواقعة بمحاذاة الحمام العسكري، وتحولت المقاهي الاخرى الى مطاعم "حديثه" وكان هناك عدد من المسابح كمسبح العجمي والسان جورج في عين المريسة والسان سيمون في الرملة البيضاء ومسبح الجامعة ومسبح قمر ناحية الروشة. ولم يبق منها الا مسبح الجامعة والسبورتنج (قمر) في رأس بيروت ومسبح السان جورج في عين المريسة.

كان لبيروت آنذاك طابع حضاري متميز يجمع بين الثقافتين الأميركية والفرنسية، فكان مركز الاولى في رأس بيروت والثانية في الاشرفية. فالجامعة الأميركية وجامعة سان جوزف (اليسوعية)، بالإضافة الى المدارس الفرنسية والاميركية الابتدائية والثانوية، خلقت جواً ثقافياً فريداً في المنطقة وجعلت من بيروت مدينة ذات طابع غربي "مودرن" في الكثير من نواحي حياتها العامة. لكنها بقيت في الوقت ذاته مرتبطة بالحبل اللبناني وتقليده، مما أسبغ عليها طابعاً آخر جمع بين عادات القرية وسذاجتها وبين ثقافة المدينة وتمذنها. ومع ان احياء المدينة الاخرى، مثل البسطة والاشرفية والدورة وكركول الدروز ورأس بيروت، عكست توزيع سكانها الطائفي من مسلمين وارثوذكس وموارنة ودروز وارمن وبروتستانت، الا ان الاختلاط ولتعامل بينها على المستوى الاجتماعي والعمل كان يتجاوز الفروقات الاثنية والطائفية.

كانت منطقة رأس بيروت تتألف من حرم الجامعة والمستشفى والبيوت المحيطة بهما. كان شارع الحمرا طريقاً ضيقاً تجاوره البساتين، ومنطقة الروشة حقولاً خالية الا من المقاهي البلدية الصغيرة التي اختفت تماماً. اما البنايات وبيوت السكن في رأس بيروت فمعظمها على النمطين التركي والاطالي السائدين منذ القرن الماضي على ساحل البحر الابيض المتوسط. وكان يحيط باكثر البيوت حديقة او فسحة خضراء. عندما سافرت بالطائرة لأول مرة في ربيع ١٩٤٧ برفقة فؤاد نجار في رحلة الى دمشق، بدت بيروت من الجو على ثلاثة ألوان: البحر الازرق، والقرميد البرتقالي، واحراش الصنوبر الخضراء المحيطة بالمدينة والمتغلغلة بين بيوتها.

كان الكورنيش الممتد من عين المريسة الى الحمام العسكري حالياً في معظم الاحيان من المارة والسيارات. كثيراً ما تمشينا هناك

في المساء ولم نر احداً او حتى سيارة. فقط ايام الاحد، وبخاصة في الربيع والصيف، النساء والاطفال كانوا يأتون الى الكورنيش ليجلسوا على الصخور او على المقاعد الحجرية التي وضعتها البلدية بمواجهة البحر حيث يتناولون ما جلبوه معهم من مأكّل ومشرب.

كنا في مطلع الربيع ننتظر موسم الفاكهه شوق ولهفة، وبخاصة موسم الفريز والاكيدنيا. وكان موسم الفريز يستمر اسبوعين او ثلاثة وكنا نتناوله مع قشطة الحليب في مطعم فبصل او مع البوظة في مقهى البارودي مقابل سينما امير. اما الاكيدنيا فكنا نشترها بالكيلو ونلتهمها في جلسة واحدة.

بسبب وجود الترام لم يكن هناك سيارات سرفيس الى رأس بيروت. وكان معظم الطلاب المقيمين خارج رأس بيروت يأتون الى الجامعة بالترام. ويعرفون قاطعي التذاكر بالاسم. اما التاكسيات التي كانت تقف في شارع بلس فلم يكن عددها يزيد عن عدد اصابع اليد، يستأجرها الطلاب الاثرياء لقيادتها على الكورنيش.

بالاضافة الى مطعم فبصل كان هناك عدد من المطاعم الصغيرة في شارع بلس وطلعة جان دارك حيث كان الكثير من الطلاب الداخليين يتناولون طعامهم على الحساب الشهري، وعندما تنفذ نقودهم كانوا يستمرون في تناول طعامهم "على الحساب" الى ان تصلهم النقود من ذويهم.

كنا عندما نسير في شارع بلس وشارع جان دارك نحبي معظم الذين نلتقيهم. وكان جميع اصحاب الدكاكين والحلاقين وبائعي الجرائد يتعرفون اليّنا منذ الفصل الاول لالتحاقنا بالجامعة. عندما عدت بعد غياب طويل الى بيروت بعد الاجتياح الاسرائيلي وجدت ان معظم الذين اعرفهم قد باعوا محلاتهم وغادروا بيروت، ولم يبق في شارع بلس ممن كنت اتذكرهم الا المعلم جبران صاحب محل

الحلاقة بالقرب من مطعم الانكل سام حيث كنت اقصّ شعري منذ التحاقني بالمدرسة الاستعدادية.

كانت وسائل الترفيه عديدة، منها الوسائل البريئة كالسينما والسباحة والجلوس في مقاهي الروشة، ومنها الوسائل غير البريئة كارتياح الملاهي الليلية والبارات و"السوق" او "البيوت السرية" بالنسبة لنا، وحتى الاشهر الاخيرة من تخرجنا، كانت وسائل الترفيه هي الوسائل البريئة. في اواخر الربيع كان اجمل ما في بيروت البحر الازرق الصافي. كان السباحون قلائل ما عدا في مسبح الجامعة، حيث كانت السباحة جزءا من التمارين الرياضية المفروضة علينا. كنا في عطلة الاسبوع نقضي معظم الوقت جلوساً في المايوه على الصخور ندخن السجائر ونتحدث. وكنا احياناً نستاجر زورقاً بأربعة مجاذيف ونحذف الى عين المريسة، والسان جورج شمالاً او الى الروشة جنوباً ونعود عند الظهيرة لتناول الغداء ثم قضاء بعد الظهر في احد المقاهي او في التمشي على الكورنيش.

كانت المقاهي البلدية في رأس بيروت فارغة في معظم الاوقات من الزبائن، فالجلوس في مقهى الروضة مثلاً او في مقهى ديبو بعد الظهر ممتعاً بشكل خاص. كنا انا وصديقتي البولونية كثيراً ما نركب الترام من بوابة الجامعة حتى آخر الخط، ثم نسير في طريق المنارة الى الروشة ونجلس في مقهى الغلاييني الى طاولة نائية تطل على البحر ونحتسي قهوتنا وندخن سجائر البافرة ونتماسك بالايدي تحت الطاولة. وفي الخريف، عندما يبرد الطقس، نركب الترام الى باب ادريس ونجلس في احد مقاهي الشاي في زاوية منعزلة، حيث كان الضوء منخفضاً والموسيقى خافتة رومانطيقية ونرقص أحياناً على انغام التانجو الساحرة.

كان انتقالنا الى بيروت بداية حقبة جديدة في حياتي، لعلها الاعمق أثراً في تكوين شخصيتي. قضيت السنة الاولى ١٩٣٨ - ١٩٣٩ طالباً خارجياً. وعندما عاد ابي وامي الى يافا بعد هاية الثورة سنة ١٩٣٩ سجّلت طالباً داخلياً فأقمت في تومسون هول في غرفة على الطابق الارضي ضمت ثمانية طلاب في سني.

كان خروجي من كنف العائلة بداية الحرية. اكتشفت ان الحرية في تلك السن تتخذ اشكالا عدة اهمها تدخين السجائر. في سوق الغرب حيث كنا نقضي عطلة الصيف، حاولت مرة التدخين في الحديقة الخلفية للبيت وراء شجرة عارية الاغصان، فما ان اشعلت السيجارة حتى اخذت بالسعال، وسمعت اخي خالد ينادي من الشرفة حيث كان يراقبني دون ان انتبه، فهرعت الخادمة تنادي امي. وكانت النتيجة أن والدي انبى تأنيباً شديداً فشعرت بمهانة وحق لم اشعر بمثلها في حياتي حتى اني لم استطع السوم في تلك الليلة. عند الفجر قررت التخلي عن عائلتي. وقمت قبل ان يستيقظ احد واغتسلت بسرعة ووضعت بعض الاغراض في بقعة صغيرة واخذت من المطبخ رغيفاً وقطعة من الجبن وغادرت البيت دون ان يحسّ بي احد. كانت الساحة العامة في تلك الساعة خالية من الناس والسيارات. لم اعرف بأي اتجاه اسير، يمينا في الطريق العام نحو عاليه او يساراً باتجاه قرى الشوف الدرزية. واخيرا سرت نحو عاليه. بعد مضي ساعة او اكثر طلعت الشمس من وراء الجبال وبدأت اشعر بالحرارة والتعب، فجلست الى جانب الطريق واكلت الرغيف وقطعة الجبن ثم تابعت سيري. وعندما وصلت الى عين السيد، على مشارف عاليه، بدأت الشكوك تراودني في صحة

حطّتي، وانخذت افكر بالعودة، لكن كبريائي منعني، فتابعت السير متباطئاً، ألتفتُ الى الوراء بين الحين والآخر، راجياً ان يكون ابي او اخي نظام او اخي نظيم في احدى السيارات القادمة من ناحية سوق الغرب الى البيت. وعند وصولي الى طلعة مدخل عاليه كان اليأس قد استولى عليّ ليرجعني. لا احد يريدني، انا وحيد في هذا العالم. ليس امامي الا الضياع والموت. جلست الى جذع شجرة بجانب الطريق، والدموع تنهمر من عينيّ، ثم غلبني النوم. استيقظت على صوت ياديني. رأيت سيارة تتوقف الى جانب الطريق وينزل منها اخي نظام فأركض اليه وارمي نفسي بين ذراعيه واتمسك به لا اريد ان افارقه.

٣

تعلمت التدخين في المدرسة الاستعدادية على يد عمران صبحي. كان يقيم معي في الغرفة نفسها. لدى نزولي من السيارة في مطلع فصل الخريف كان عمران اول من رأيت من زملائي. كان واقفاً امام مدخل تومسون هول، فقام وساعدني على حمل اغراضي الى الغرفة ووضعها فوق السرير المخصّص لي. اول ما لفت نظري لهجته الشامية. كان شكله لا يلفت النظر: صغير الحجم، هزيل الجسم، تعلو وجهه صفرة دائمة، الا انه كان ذو شخصية كرزماتية متميزة. كان سريره والفسحة المزدوجة امام خزانته المجاورة محور الغرفة ومركزها الاجتماعي. كان يملك سخانة كهربائية يستعملها لصنع القهوة والكاكاو ولتحميص ساندويش الجبنة القشقوان مع الزبدة التي كان يقدمها الى المقربين منه في ساعات بعد الظهر على

ضوء شمعة او مصباحه الكهربائي او بعد ان تطفأ الانوار في المدرسة الداخلية. كان يحتفظ بالسجائر على انواعها المختلفة، من البافرة المحلية الى اليليز الانكليزية واللاكبي سترايك الاميركية. علّمنا ان نضع قطرة او قطرتين من العطر العربي على لفافة السجائر المحلية لاعطائها نكهة مشابهة لنكهة السجائر الانكليزية والاميركية. وذات يوم قدم لي سيجارة من نوع "كريفن إي"، وكانت تعتبر من افخم انواع السجائر اطلاقاً. جلست في مكان منعزل بين الاشجار بالقرب من المكان الذي تقوم فيه الآن بناية كلية الهندسة في الجامعة الاميركية، واشعلت سيجارة الـ كريفن إي واحذت منها نفساً عميقاً، تماماً كما كان يفعل عمران. كدت اختنق واصابني دوار شديد وشعرت اني على وشك التقيؤ، جلست عدة دقائق بلا حراك الى ان عدت الى شبه حالتي الطبيعية. رميت السيجارة ارضاً ودستها برجلي على ان لا اعود الى التدخين ابداً. ولم المس سيجارة اخرى الى ان قدّم لي عمران سيجارة قائلاً انها "خفيفة" وذات نكهة نادرة. كنا في غرفة النوم بعد الظهر والبنية خالية من الطلاب. اخذ عمران سيجارة واشعلها ببطء. كان التدخين بالطع ممنوعاً علينا منعاً باتاً والعقاب شديد لمن يضبط بهذه الجريمة. ضحك عندما رأى معالم الرعب على وجهي: "لا تخف، لا يوجد في البناية احد."

واخذ يعدّ قدحاً من الكاكاو والسيجارة بين شفّتيه كأه يمتلك تومسون هول. كان دائماً يحب الظهور بمظهر الشخصية القوية اللامبالية، واعطاء الانطباع انه صاحب مواقف بطولية. وكان ذلك يترك اثراً عميقاً في نفوسنا.

وبالفعل كان عمران لا يبالي بالسلطة والقانون. كانت الدراسة لا تعني له الكثير، فلم يكن يعدّ لدروسه اكثر مما يتطلبه تحصيل علامة C او D اي وسط او دونه، ولم اسمعه يوماً يتحدث

في موضوع فكري او يناقش قضية أثرت في الصف. لا اذكر له وجوداً في الصفوف التي كنا نأخذها سوية. يجلس دائماً في صف المقاعد الاخير ولا يتكلم الا عندما يوجه اليه الاستاذ سؤالاً فيجيب عليه بأقل عدد ممكن من الكلمات. كان يتصرف داخل الصف كأنه رائد عابر لا علاقة له بما يجري فيه، ولا جلد له على الالعب الرياضية التي كانت حياتنا تدور عليها، فيرفض الاشتراك في العاب الفوتبول والباسكتبول، ونادراً ما كان يرافقنا الى مسبح الجامعة عندما يبدأ موسم السباحة في الربيع. شاهدته مرة او مرتين في لباس البحر جالساً تحت مظلة يخفي في يده سيجارة مولعة يشفط منها نفساً بين الحين والآخر وهو يروي احد قصصه لعدد من اتباعه الذين يرافقونه اينما حل. لم يكن له صديقاً واحداً بل شلة من الاتباع، يشاركونه في شرب القهوة والكاكاو ويرافقونه ايام السبت بعد الظهر الى السينما.

ص

كنت احياناً اعتبر عضواً في هذه الشلة، وحياناً كان يُنظر اليّ على اني خارجها كلياً، وذلك تبعاً لموقف عمران مني. كانت تمر اسابيع وعلاقتنا على احسن حال، ثم فجأة يحدث ان اقوم بعمل او ان اتفوه عن غير قصد بكلام يزعجه لسبب ما، فيتغير موقفه نحوي ويتوقف عن دعوتي الى تناول الكاكاو ومرافقة الشلة الى السينما. فابتعد عنه لفترة دون ضغينة او غضب، واستمر في تحيته باسماء كلما التقيت به، الى ان ينسى اساءتي اليه فيعود عن صمته العميق فيدعوني الى مرافقته ويقدم لي السجائر والكاكاو.

أحب التسلية الينا كان حضور الافلام السينمائية. الذهاب الى السينما كان الحدث الشهري الأهم في حياتنا. كان عمران يختار الفيلم الذي سنشاهده والمكان الذي سنجلس فيه بالصالة. فكنا نجلس احياناً في البلكون وندفع الثمن الباهظ، ٤٥ قرشاً، او في

القاعة العامة وندفع ١٥ قرشاً. وكانت الصالتان المفضلتان لدينا الكريستال (والغران تياتر) وتقع الاولى داخل سوق الخضرة بمحاذاة ساحة البرج والثانية في رأس شارع المعرض. وكانت سينما الكريستال من الدرجة الثالثة اما الغران تياتر فكانت من الدرجة الثانية. وكانت احب الافلام الينا المسلسلات لبوليسية (ديك تربسي) وافلام بيتر لوري التي يلعب فيها دور المستر موتو البوليس السري الياباني الاصل والخير بالجوجستو التي كان يمارسها بحفة ورشاقة مذهلتين. وكنا عندما يحين موعد ذهابنا الى السينما نتناول الغداء بسرعة، ثم نغتسل ونسرح شعرنا بالبربل كرم اللعان، ونرتدي ثياب الخروج. وبعد ان يوقع لنا المستر سول والمستر مطران على التصريح الذي يسمح لنا بمغادرة المدرسة من الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الساعة السادسة مساءً، نستقل ترام المنارة/فرن الشباك الى ساحة البرج ثم نترجل عند موقف سينما روكسي قبل ان يتوقف الترام وذلك حسب العرف المتبع بيننا بان لا نركب الترام او نترجل منه الا وهو سائر. اول شيء نفعله هو تناول كأس عصير البرتقال عند مدخل سوق الخضار، ويصرّ عمران على ان يدفع الحساب عن الجميع. ثم نتجول قليلاً في سوق الخضار، اذا كنا سنحضر فيلماً في سينما الكريستال، او نسير باتجاه شارع المعرض اذا قررنا مشاهدة فيلم الغران تياتر. كانت المقاعد مرقمة في كافة صالات السينما في بيروت، حتى صالات الدرجة الثالثة مثل الكريستال، فكان عمران يبعث احدنا لشراء التذاكر باكراً وانتظارنا عند مدخل الصالة ما يمكننا من التجول حتى قبل بداية العرض بدقائق فنصل الى السينما والاضواء تخفت تمهيداً لبدء الفيلم. فنجلس في مقاعدنا الوثيرة (وكانت المقاعد حتى في سينمات الدرجة الثالثة وثيرة في تلك الايام) ونشمل السجائر التي يوزعها علينا

ويتصاعد عبر البافرا المعطرة مختلطاً برائحة سجائر عمران الانكليزية، ونغيب في عالم ديك تريسي او مستر موتو لفترة ساعتين في حالة من المتعة الكاملة. وعندما تضاء الانوار نطفئ سجائرننا ونعود الى عالم الواقع ونسير الى ساحة البرج لتتوقف، كما كان عهدنا، امام منصة الساندويش الصغيرة الملاصقة بمقهى ابو عفيف ونلتهم عدة ساندويشات من المقائق المطفأة بالحامض الى جانب عدد كبير من فطائر السبانخ. واذا كانت الساعة ما زالت مبكرة نسير في ساحة الرح الى شارع ويغان ونستقل الترام من المحطة الواقعة امام محل نجار او تلك التي تليها عند رأس طلعة باب ادريس. اما اذا كانت الساعة قد تعدت الخامسة والنصف فنستقل الترام من المحطة مقابل سينما روكسي لتأمين عودتنا الى المدرسة في الموعد المحدد لنا وهو تمام السادسة.

٤

في بداية العام الدراسي التالي انتقلت من نومسون هول الى سيج هول، فتغير مجرى حياتي الى حد كبير، فاصبح لدي صداقات جديدة وانقطعت علاقتي بعمران وشلته طيلة ما بقي من سنوات المدرسة الاستعدادية. لكن كنت اراه من بعيد بين الفترة والاخرى. التقيت به ذات يوم بعد انتقالنا الى صف الفرشمن في الجامعة. ناديته من بعيد: خيّل اليّ انه لم يعرفني، الى ان اقترب مني وعلت وجهه ابتسامة. كان اشد هزالا من السابق، وتحت عينيه شحوب واضح. دعوته الى تناول فنجان من القهوة في المليك بار، وجلسنا الى طاولتي المفضلة بالقرب من النافذة. اشعل سيجارة واخذ منها

نفساً عميقاً ولم يلفظ شيئاً من الدخان الذي استقر في صدره النحيف. سألته عن دروسه. قال انه تخصص في "ادارة الاعمال"، ولم يُبدِ حماساً كبيراً للموضوع. قال انه ضجر من حياة التلمذة ويفكر بمغادرة الجامعة للعمل في وظيفة أتاحت له في دمشق. سألته اذا كان يعرف شخصاً اسمه يحيى حمصي من دمشق. كان يحيى من دمشق ايضاً وقد نشأت بيني وبينه صداقة حميمة. قال: "ليس هو الشاب الذي يدرس الأدب الانكليزي ويريد ان يصبح كاتباً؟"

قال ذلك بشيء من التهكم، لكن بلهجة غير عدوانية. وتبين ان يحيى كان يسكن في الحي نفسه (سوق مروجية) الذي يسكن فيه عمران وبالقرب من بيته في دمشق. تذكرت ان عمران تربي يتيماً في بيت جده، تماماً مثل يحيى الذي عاش في كنف خاله بعد وفاة والديه. لكن كم كان حجم الفارق بينهما. يحيى المتفائل والمتحمس لحياة الفكر والادب، وعمران المتشائم، الساخر بكل ما له علاقة بالفكر والادب.

تحدثنا قليلاً عن ايام تومسون هول ثم افترقنا على ان نلتقي في القريب.

لم نلتق الا بعد مرور اكثر من ثلاثين عاماً وذلك في صيف ١٩٧٦ عندما قمت بزيارة الى بيروت اثناء الحرب الاهلية. كانت الحالة قد هدأت نوعاً ما، وكنت اقيم في شقة في نزل الاساتذة المطل على نادي خريجي الجامعة الاميركية. عند وصولي التقيت بفضيل سلطي، احد اعضاء شلة عمران واقربهم اليه، واحرني ان عمران موجود في بيروت وانه سيسافر الى افريقيا في اليوم التالي. وسألني اذا كنت ارغب في رؤيته قبل سفره. واتفقنا على ان نلتقي مساء ذلك اليوم في مقهى الهورس شو.

كان عمران جالساً في زاوية منعزلة من المقهى والى جانبه امرأة

في الثلاثينات من عمرها. لم يتغير في شكله او حركاته. عانقني بحرارة وعرفني الى المرأة التي بجانبه دون ان يذكر اسمها (اخبرني فضيل فيما بعد انها زوجته). سألته عن سبب سفره الى افريقيا، فقال انه يقوم بمشروع تجاري في نيجيريا ثم غير الموضوع. بدا في حالة توتر، يلتفت كلما رأى شخصاً يدخل المقهى الخالي تقريباً من الزبائن. علمت من فضيل فيما بعد انه غادر دمشق "لأسباب سياسية". سألتني عن احوالي وقال انه يتبع نشاطاتي، لكنه كان شارد الفكر ولا يستطيع التركيز على موضوع. ولم تتفوه زوجته بكلمة طيلة جلوسي معهما. وبعد برهة قصيرة قام مودعاً وعانقني برفق قائلاً: "سنلتقي قريباً هذه المرة."

توفي عمران بعد بضع سنوات من لقائنا في مقهى الهورس شر. اخبرني فضيل انه عاد من افريقيا "خالي الوفاض"، ثم اصابه مرض عضال أودى بحياته.

٥

تزامن التحاقني بالمدرسة الاستعدادية مع اندلاع الحرب العالمية الثانية. شاهدت الحرب لأول مرة خلال عطلة صيف ١٩٤٠ وانا في عكا. كنت جالساً في خيمتي فوق السطح عندما اطلقت صفارات الانذار وسمعت جدتي تنادي: "غارة، غارة. الى الكرار." وكان الكرار هو القبر تحت المنزل حيث تخزن المؤن وعدة البستنة، اعدته جدتي في بداية الحرب ليكون ملجأ اثناء الغارات الجوية، وزودته بكل شيء سوى الشموع. اجلت شراءها ثم نسيتها تماماً. جلسنا في الظلمة واجمين صامتين نصيحخ السمع. مضت دقائق

ولم يحصل شيء. فتحت جدتي باب الكرار، فسمعنا جلبة آتية من جهة بيت الجيران ومن فوق سطح المسجد الصغير المحاذي للبيت. كان الجيران وشيخ المسجد ومساعدوه على السطح يتطلعون نحو حيفا وهم يشيرون بأصابعهم ويهللون. خرجت من الملجأ وصعدت راكضاً الى سطح البيت. رأيت الناس على السطوح يتفرجون على الغارة التي تشنها الطائرات الايطالية على ميناء حيفا ومصفاة البترول المتاخمة لها، والتي تقع على الجهة المقابلة لخليج عكا. كانت القذائف المضادة للطائرات تنفجر عالياً في الجو طابات من الدخان لا يسمع صوت لها. وتبينت طائرتين ترتفعان في الجو ثم تختفيان وراء الغيوم. في المساء قالت اذاعة لندن ان الطائرات اقلعت من جزيرة رودس، وان العارة استغرقت بضع دقائق وان مصفاة البترول وميناء حيفا لم يصابا وانه لم تقع خسائر في الارواح.

والمرة الثانية والاخيرة التي شاهدت فيها غارة اثناء الحرب كانت في بيروت في بداية السنة الدراسية في خريف ١٩٤١. كنا في صف الاستاذ موسى سليمان وقد بدأ رمزي صهيون بتعريب بيت قصيدة حفظناها عن ظهر قلب في الاسبوع الماضي وبدأ على وجه رمزي انه لم يسمع بها قط. فجأة علت صفارات الانذار فساد صمت عميق شمل البناية بأكملها. صاح رمزي بحماس: "استاذ! غارة!"

حرب عام
١٩٤١م

في تلك الساعة سمعنا هرجاً ومرجاً وصوت الطلاب يتصايحون وهم ينزلون الادراج الى خارج البناية. نادى موسى سليمان: "لنخرج على مهل دون ضجيج."

تدفقنا الى الباحة يتقدمنا رمزي صهيون نحو "الملجأ" الذي كان عبارة عن خندق في ملعب كرة القدم أمام بناية روكفلر التي تقع فيها غرف الدراسة.

وقفنا في الخندق ننظر الى السماء الزرقاء لعدة دقائق ولكن لم يحدث شيء. وبدأ حماسنا يتحول الى ملل. ثم فجأة سمعنا هدير طائرات آت من بعيد. صاح احد الطلاب وهو يشير بيديه: "هناك! هناك!" نقطتان فضيتان تلمعان في الجو عالياً، آتيتان من الشرق. كان واضحاً من علوهما انها لا يقصدان الاغارة على بيروت. وما هي الا بضع دقائق حتى اخففتا عن الانظار فوق البحر.

طيلة أيام الحرب لم اسمع رصاصة واحدة تطلق او قبلة تنفجر. شهدنا الحرب في السينما في "الاخبار المصورة" التي كانت تعرض قبل بداية الفيلم، وفي الصحف والمجلات، لكننا لم نخبر شيئاً من قسوة الحرب وآلامها. ففي حين دُمِّرَت مئات المدن وقُتل الملايين من البشر كنا نعيش في بيروت في الـ I.C. ثم في الجامعة حياة هائلة منعزلة عن العالم الواقعي. احببنا الحرب فقط بافتقار بعض المواد الغذائية، مثل السكر النقي والخبز الابيض والشكولاته الاجنبية. الا اننا لم نحرم من السكر البني اللون او الخبز الاسمر او الشكولاته المحلية. ومن كان لديه مال استطاع شراء كل ما تشتهي النفس. فلاغذية من سكر وارز وخبز فرنجي وابيض وخضار ولحوم وفاكهة وحاجيات مستوردة كانت متوفرة في الاسواق. كانت اسواق البرج وباب دريس تعج بالناس من الصباح الى المساء. وكانت بيروت في فترة الحرب هذه التي شهدنا هاية الانتداب وقيام حكومة فيشي والاحتلال البريطاني وبداية الاستقلال الوطني حافلة بالحركة والشايط. بدل العذاب والدمار جلبت علينا الحرب اليسر والثراء بسبب ما انفقته الجيوش الاجنبية من اموال. كان البناء على قدم وساق في كل انحاء المدينة، وبخاصة في وسطها، حيث شيدت خلال سنوات الحرب بعض اجمل مباني بيروت الحديثة، مثل سينما دنيا وسينما اوبرا في ساحة البرج، واوتيل النورماندي في حي الزيتون

الذي نafs اوتيل السان جورج منزلة واناقة. وانتعشت كذلك
البارات والملاهي الليلية رغم التعقيم الاحباري، وكان قضاء السهرة
في الليدو او الكيت كات من المتع الجميلة الخاصة ايام الحرب.
كان رمزي صهبون من حيفا اكبرنا سنأ واضخمنا حجماً،
وكان كلما عاد من العطل المدرسية الى بيروت نزل هو وصدقائه في
احد فنادق البرج لقضاء بضعة ايام قبل بدء الدراسة وذلك بغرض
ارتياذ المقاهي والسينمات والملاهي الليلية. وفي بداية كل فصل كان
وصحبه يطلعون علينا، نحن الطلاب الاصغر سنأ، بحكايات عن
مغامراتهم مع ارتيستات الليدو والكيت كات والبيوت "السرية"،
ونبقى اياماً نستمع اليهم بشغف واعجاب ونحلم باليوم الذي كنا
سنصبح في مثل سنهم لنفعل ما كانوا يفعلون.

٦

تمثلت الحرب في الظلام الذي كان يلف حياتنا نهاية كل يوم.
فعند هبوط المساء كانت بيروت تتحول من مسرح واسع تغمره
الشمس بضوئها الفضي الى ظلمة زرقاء تغمر المدينة. فجأة تنعدم
الصوضاء وينتهي الزحام، ولا يبقى في الشوارع الا اشباح تظهر ثم
تختفي في الظلمة الزرقاء. كنا ندخل هذا العالم فقط بصحبة احد
المشرفين علينا في تومسون هول (المستر بسول او المستر مطران)،
وذلك لتناول البوظة او الساندويش عندما نخرج الى احدى المقاهي
الصغيرة في شارع بلس، او للذهاب الى السينما. وكان الذهاب الى
السينما في المساء حدثاً نادراً يمثل لنا قمة المتعة. ومن حسن حظنا ان
المستر مطران كان من عشاق الافلام.

في ليلة في مطلع الربيع كان فيها القمر هلالاً، دعانا المستر مطران الى شقته بعد انتهاء فترة الدراسة الليلية. وقال: "من شاهد منكم فيلم "نمر البنغال"؟"

كنا قد شاهدناه جميعاً. لكننا تظاهرنّا اننا لم نسمع به. فنحن دائماً على استعداد كامل لحضور اي فيلم، وبخاصة اذا كان في حفلة الساعة التاسعة.

اذكر تلك الليلة بوضوح. كان الطقس دافئاً والهواء يهب من البحر عطراً يغلف الاشياء بضوء خافت، كما نراها في الاحلام. وفعلاً حدث ما يبدو لي الان حلماً. الا اني اعرف انه حادث وقع بالفعل. في الذاكرة يختلط الواقع بالخيال لكنه يبقى واقعاً وان تغير تمثّلنا له. لم اذكر هذا الحادث لاحد، حتى لعمران الذي كان رفيقي في تلك الليلة السحرية. ولم اتذكره الا الآن وانا استعيد احداث حياتي في تلك الفترة.

نصعد الترام الخالي من الركاب، نحن الاربعة والمستر مطران الذي يجلس مع زميلينا في مقدمة الترام، ونجلس انا وعمران في الخلف، انا بمحاذاة النافذة وهو الى جانبي. اكاد لا اراه في ضوء الللمبة الكهربائية الوحيدة في سقف الترام المصبوغة بالدهان الازرق. اضع قدمي فوق المقعد الخالي امامي واسند ظهري الى المقعد الخشبي واجيل نظري في الظلمة حولي. يسير الترام الى محطة الجامعة، ولا يصعد ركاب. يتوقف في محطة المستشفى وايضاً لا يصعد احد. في محطة الديك، حيث تقوم الشكّنة المخصصة لسكن الضباط الفرنسيين وعائلاتهم، يصعد راكبان اتبين انها امرأتان. تتوقفان حيث نجلس انا وعمران وتجلسان في المقعدين المقابلين. بدا ذلك مستغرباً، فكل المقاعد حولنا كانت شاغرة. تكاد احدهما ان تجلس على قدمي قبل ان اسحبها بسرعة. اراها امامي شبحاً لا

اتبين منها الا فستانها الابيض وانتشق عبير عطرها الفرنسي المسكر. عندما يسير الترام تقدم سيحارة الى صديقتها وتضع اخرى بين شفتيها وتشعل السيجارتين بنار قداحتها. في الضوء المح وجهها. رأيتها تنظر اليّ في اللحظة التي كنت احاول ان اتبين وجهها. كانت فرنسية بلا ادنى شك. بعد قليل، تتبادل بعض الكلمات بالفرنسية مع صديقتها. تنظر لي دون ان يرمش لها جفن. ادير وجهي واعدو الى تأمل الظلمة. عندما نصل الى محطة الفرير يخفف سائق الترام من سرعته. وعندما يرى انه لا يوجد ركاب لا يتوقف ويعاود سرعته، مما يجعل المرأة الجالسة امامي تندفع الى الامام فجأة فتمس ركبتيها ركبتي. اعتدل في جلستي واسحب نفسي الى الوراء قدر الامكان. لكن ركبتيها لا تزحزحان واشعر بساقيها حول ركبتي اليمنى. تجمدت في مقعدي، احرق في الظلام. الترام يجري بسرعة بمحاذاة وادي ابو جميل ثم يتوقف في باب ادريس ويصعد راكبان. يأتي بائع التذاكر، الذي كان حتى الان جالساً بالقرب من السائق يتحدث اليه، ليقطع لنا التذاكر مصوباً مشعل بطاريتة نحونا. ترفع المرأة رأسها نحو بائع التذاكر وتضع النقود في يده. ارى وجهها واحمر الشفاه الغامق على شفتيها. كانت ربما في الثلاثين من عمرها. تغير من جلستها بشكل عفوي، لكن ضغط ساقيها على ساقي يبقى على ما هو. (كنت ما ازال ارتدي البنطلون القصير). احس انها تنظر نحوي في الظلمة واستمر في النظر من خلال النافذة دون حراك.

عندما نصل الى ساحة البرج يقف عمران استعداداً للنزول، واقف بدوري. ترفع رأسها وتنظر اليّ. ارى بريق عينيها، ويخيل لي انها تبتسم لي بتهكم. اسمع المستر مطران ينادي اسمي فاسرع بالنزول. في السينما اجلس شارد الذهن. كنت ما زلت احس

بحرارة ركبتيها. ما الذي حدث؟ هل تحرّشت بي، ام خيل لي؟ ارى
بتسامتها وبريق عينيها. اراها الآن.

٧

عد التحافي بالمدرسة الاستعدادية في بيروت كانت ثقي
بقدرتي على الكتابة قد بدأت بالنمو والتزايد. يعود ذلك بالاكثـر الى
الاثـر الذي تركه في نفسي معلم اللغة العربية في مدرسة الفرندز
للصبيان في آخر سنة قضيتها هـاك. كان اسمه فرج، وكان شاباً من
غزة في العشرين من عمره، قليل الكلام، وقوراً في مظهره، متزناً في
حركاته. درّسنا اللغة العربية باهتمام لم اعهد به بالمدرسين الآخرين.
تعلمت منه القراءة وحب الكتب. قرأت تلك السنة "اسفار جلفر"
و"رويسون كروزو" و"رحلات السندباد البحري" وغيرها من
القصص التي ترجمها او لخصها كامل الكيلاني في سلسلة كتب خاصة
بالاطفال نشرتها دار المعارف بمصر مزينة برسوم ملونة. وكان الاستاذ
فرج اول من نقد نصاً كتبته على شكل قصة قصيرة. لا انسى اليوم
الذي دخل فيه قاعة الدرس وتحت ابطه مواضيع الانشاء التي كنا
قدمنها له في الاسبوع الفائت. قال وهو يجلس الى الطاولة: "سأقرأ
عليكم اليوم قصة بقلم هشام شرابي."

اذكر صوته وهو يقرأ القصة بكاملها. تلقاها افراد صفي
باعجاب ودهشة. لأول مرة اسمع كلامي من خلال صوت آخر.
شعرت بوجودي خارج نفسي. اذكر مطلع القصة: "كان المطر ينهمر
بشدة والريح تعصف بجنون عندما دقت الساعة الثانية عشرة..."
معلم آخر ترك في نفسي اثراً كبيراً هو منير سعاده الذي درّسني

في اول سنة التحقت فيها بالاستعدادية في بيروت ثم درست عليه عدة مواد في السنوات اللاحقة، واهمها مادة تدعى بالانكليزية Human Conduct. انه يعدّ محاضراته كما لو كان يحاضر على مستوى جامعي، ويعاملنا معاملة الكبار. كنا نستمع اليه بشغف ونسعى للاجتماع به خارج الصف. كان، مثل الاستاذ فرج، مدرّس من نوع مميّز يختلف عن المدرسين الآخرين. كل هدفه انهاء قدراتنا الذاتية وتحقيق استقلالنا النفسي. بقيت على اتصال به حتى بعد انتقالي الى الجامعة والى ان هاجر الى اميركا قبل تخرجي بسنة او سنتين. وبعد مرور عشرين عاماً التقيت به في واشنطن وقمت انا واسامة قدري (وكان اسامة قد عين في السفارة العراقية في واشنطن) بزيارته في "نشوت" المدرسة التي كان يدرّس فيها وتعتبر احدى اشهر المدارس الخاصة في الولايات المتحدة. ولما صدر كتابي Neopatriarchy منذ بضع سنوات كان منير سعاد قد تقاعد واصبح في الثمانينات من عمره. تسلمت منه رسالة بالانكليزية في اكثر من عشر صفحات يعلّق فيها على الكتاب بلهفة وحاس، كما كان يفعل عندما كان يقرأ شيئاً كتبه وانا في الصف الثالث او الرابع ثانوي. يقول في الرسالة بلهجته المازحة: "كنت ادرك دائماً انك ستكون يوماً ابن خلدون القرن العشرين، وقد ايقنت الآن انك في الطريق الى تحقيق ذلك."

كنت على جانب كبير من الحظ بأنّي التحقّت منذ الصغر بالمدارس الاجنبية التي لم اتعرض فيها الى الثقافة الابوية التقليدية واساليبها القمعية. وكنت محظوظاً بخاصة بأنّي درست على مدرسين، مثل فرج ومنير سعاد وشارل عيساوي، غرسوا في نفسي الثقة والشعور بالاستقلال. لكن حتى في هذه المعاهد التي توفر فيها قدر كبير من الحرية الذاتية بقي الفكر والثقافة مسائل مجرّدة. ومن خبرتي

الخاصة اعرف ان ما نعجز عن تحقيقه بأنفسنا في المدرسة والجامعة لا يستطيع اساتذتنا، مهما كانت حظوتهم من "العلم" و"الثقافة"، تلقيننا اياه. التوصل الى الحرية الذاتية والاستقلال الفكري لا يأتي من خلال "التعليم" بل عن طريق الممارسة الفعلية في جو خلّو من السلطة الابوية وقمعها.

تعرفت الى حزقييل جوري في سنتي الاخيرة في الاستعدادية وكان لقائي به حدثاً هاماً في حياتي. كان جوري (هكذا كنا ندعوه) عراقياً يهودياً من بغداد (آنذاك لم تكن نعم دين الشخص او هويته اي اهتمام، هويته الوحيدة كان يقررها مسلكه الشخصي). ما لفت نظري الى جوري في بادئ الامر اناقة ملبسه. كان دائماً يرتدي البذلات المفصلة احسن تفصيل وربطات العنق الثمينة. غير انه في الوقت ذاته كان قليل الاهتمام بمظهره، تاركاً ربطة عنقه في غير مكانها ورباط حذائه دون انعقاد. كان في مظهره ومسلكه الفنان او الشاعر المشتت الفكر، الساهي عما حوله، كما تبين لي بعد ان تعرفت اليه جيداً. كان فناناً يهوى الرسم، لكنه ايضاً يهوى المسرح والروايات المسرحية. دهشت عندما اخذ يحلل لي ذات يوم تركيب الرواية المسرحية بلهجته العراقية مستعملاً تعابير فنية لم اعهد لها من قبل. قال ان الرواية المسرحية تشكل نصاً ادبياً فقط في احدى وجوهها، اما ماهيتها فتتجسد في الاختبار الحي الذي يصنعه لا كاتب الرواية وحسب بل جميع من يشارك في جعلها واقعاً مرئياً على المسرح من مخرجين وممثلين وفنيين. كنت حتى ذلك الوقت "تقليدياً" في قراءتي، لا اعرف الا اختبار القارئ في وحدته التامة مع النص المكتوب. كانت مقولات الحس ذاتها، الجسد، الحضور، اللذة، تعابير مجردة. ودون ان ادري فقد خطوت الخطوات الاولى آنذاك باتجاه التخلي عن مثالياتي الفكرية ووجدتني على استعداد اكثر لتلقي

الاختبار المباشر وليس فقط ما ينبع من الفكر او العقل.

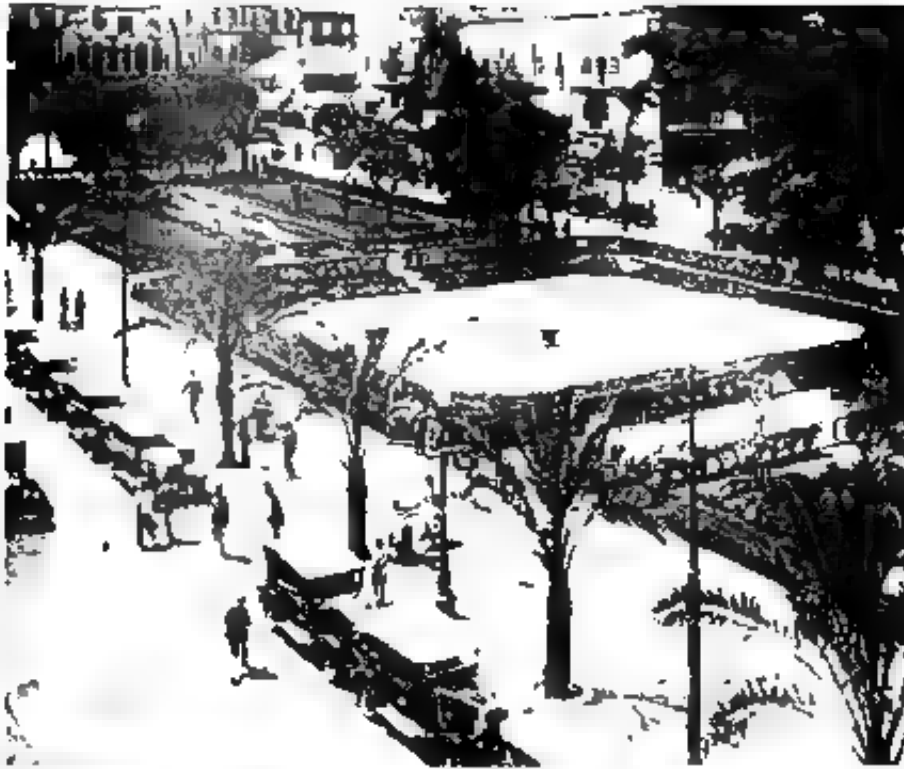
قامت صداقتي بحزقيل جوري، كما لم تقم اية صداقة اخرى في تلك الفترة من حياتي، على التذوق الفني، لكنني اشعر اني اكاد لا اعرف من كان حزقيل جوري. في حياتي لم اعرف شخصاً على شاكلته. ما زلت حتى اليوم كلما زرت معرضاً للصور او حضرت اوبرا او مسرحية يمر بخاطري شبح حزقيل جوري. هو الذي جعلني اقرأ اول مسرحيتين قرأتها في حياتي: "بيرجنت" لهاينرك ابسون و "بجماليون" لجورج برنارد شو. قرأتها قراءة "مسرحية" كما شرحها لي، من منطلق التركيب المسرحي: تنظيم المشاهد، الديكور، الاضاءة، وليس فقط من زاوية الحدث والحوار. كانت تلك القراءات بالنسبة لي "نقطة" فكرية عميقة لا على مستوى القراءة وحسب، بل على مستوى النظر والتفهم و"الكتابة"

هل اغالي في عمق الاثر الذي تركه في نفسي هذا الشاب العراقي وانا لم ازل في السادسة عشرة من عمري؟ ربما. لكن لا اظني ابالغ في وصف النشوة التي امتلكتني بفعله والافاق التي تفتحت لي من خلاله، والتي ما زالت جزءاً من معالم حياتي الفكرية والعاطفية.

قبل التخرج ببضعة اسابيع وقع خصم بيني وبين جوري لا اذكر سببه، وانقطعت العلاقة بيننا. كنا عندما نتقابل في الكافتيريا ينظر الي متوقفاً ان ابتسم اليه او ان احياه، غير ان عنادي كان يمنعني من ذلك. يوم مغدرتنا الاستعدادية بعد التخرج رأيت في احدي بذلاته الانيقة (وكان فصل الحر قد ابتدأ) يحمل حقيته والعرق يصبب من جبينه. هممت ان اركض واضمه الي مودعاً. لكنني لم افعل، وما زلت كلما تذكرت ذلك اليوم اشعر بالحسرة والندم.

ما حل بجوري بعد ١٩٤٨؟ هل انتقل الى بلدي التي
 أصبحت "اسرائيل"؟ هل هاجر الى اميركا؟ هل ما يزال في العراق؟
 هل ما زال على قيد الحياة؟ اذكر انه في عطلة الربيع في السنة
 الاخيرة قرر زيارة تل ابيب بدل الذهاب الى بغداد، كما كانت عادته
 في العطل المدرسية. وعندما عاد حدثنا بحماس عن النهضة المسرحية
 في تل ابيب وعن الروايات التي شاهدها هناك. وكان حديثه خالياً
 من اي محتوى سياسي. تمنى لو تسنح له الفرصة بان يقيم في
 فلسطين وان يكون قريباً منا.

ساحة البرج في أواخر
الثلاثينات



أنا ومثير رمضان مع
المستتر مطران أمام
تومسون هون (لا اذكر
اسم الواقف خلفنا).



منير سعاده قبل
هجرته إلى أميركا سنة
١٩٤٧ وابنته (أصبح
طبيباً ويقوم في واشنطن)
واخيه ولیم وأنا.



الترام في رأس بيروت
بالقرب من الجامعة
الأميركية في الثلاثينات.

السنة الاحدادية الثالثة (١٩٤١ - ١٩٤٢) مع
مدرّسنا في مادة الطييمات الاستاذ حسن حسن الواقف
الثاني من اليسار والى يمينه محمود ابو الزلف (صاحب
جريدة القدس). عمران في ركعته المقضلة بيني وبين
طارق حمود.



السنة الاحدادية الثانية (١٩٤٠ -
١٩٤١). عمران يقف في وسط الصورة في
الحنق المستعمل ملجأ ضد الغارات الجوية،
والى جانبه صبي قمّوار ووراءه فؤاد
نجلار.



اسفل اليمين. مدرّسنا آنذاك منير
بعلبيكي.

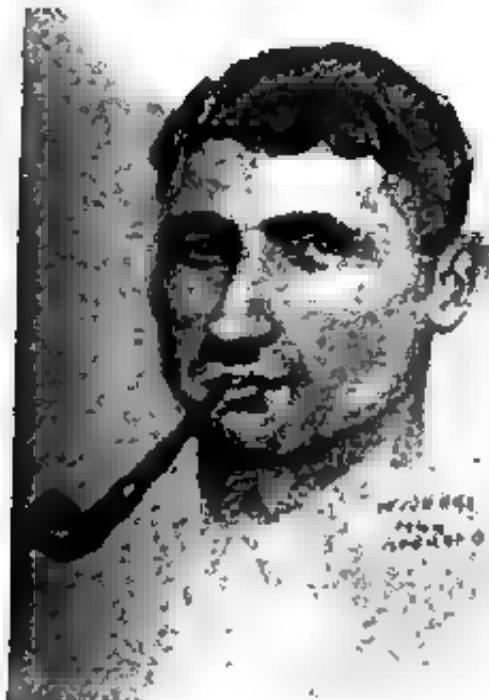
سني الأولى في الاحدادية (١٩٣٩ -
١٩٤٠). انا اختيمه وراء حمد آل خليفة
الواقف في الوسط. في أقصى اليمين يقف
فؤاد نجلار، وعمران الثاني من اليسار يركع
الى جانب فؤاد بلطجي.





كنا نغير عن صداقتنا بتبادل الصور الفوتوغرافية يلتقطها لنا
المصور فاعيه في اسوديو صغبر في باب ادريس. الاولى من
اسماعيل الانصاري وقدمها الي: وتذكّار الجامعة في
٢٠/٢/٤٢. والثانية من ميشيل حمار: «تقدمة الى حضرة
الفاضل هشام شرابي من صداقة الجامعة الاميركية في
٢٦/١/٤٠. والثالثة من اخيه اندريه حمار: «أقدم رسمي
لصديقي الوفي هشام تذكّار المحبة والصداقة، ٢٢/٢/٤٢.
والرابعة من يوسف دجاني: «أقدم صوري هذه للسيد هشام
شرابي وذلك تذكّار الصداقة الخالدة بيننا، ١٥/٤/٤٢.

قدم لي حزقيال جوري عدة صور احداها لوحة زيتية لجبران نفلها عن كتاب ميخائيل نعيمة.
الرسمان ادناه مهوران باسمه.





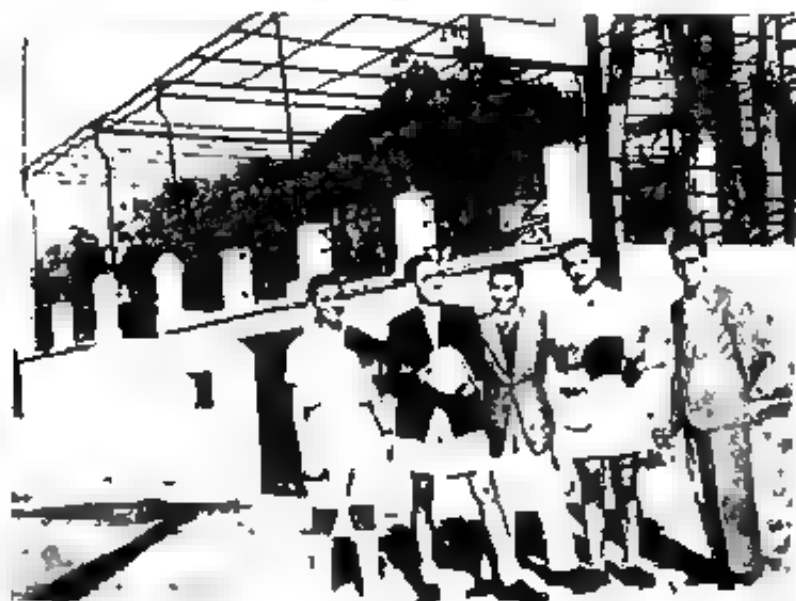
الصورة الى اليسار التقطت عن شاطئه عكا في صيف ١٩٤٥ (نهاية سنة السوفمر). كانت ليا فتاة يهودية تعمل سكرتيرة في الريفأيري دحاما كامل مرة للباحة معنا في عطلة آخر الاسبوع، وصارت تأتي كل اسبوع حتى نهاية الصيف. كنا بعد الباحة نذهب الى بيت كامل ونرقص التانجو على انغام والجرامفون القديم. كانت ليا لول امرأة اضمها إلى صدري. علمتني خطوات الرقص، منها ومن حزقيل جوردي تعلمت أن لا فرق بين البشر الا في احوالهم الاجتماعية وصفاتهم الذاتية. في نهاية الصيف عقدت خطبتها على زميل لها، ولم ارها بعد ذلك.

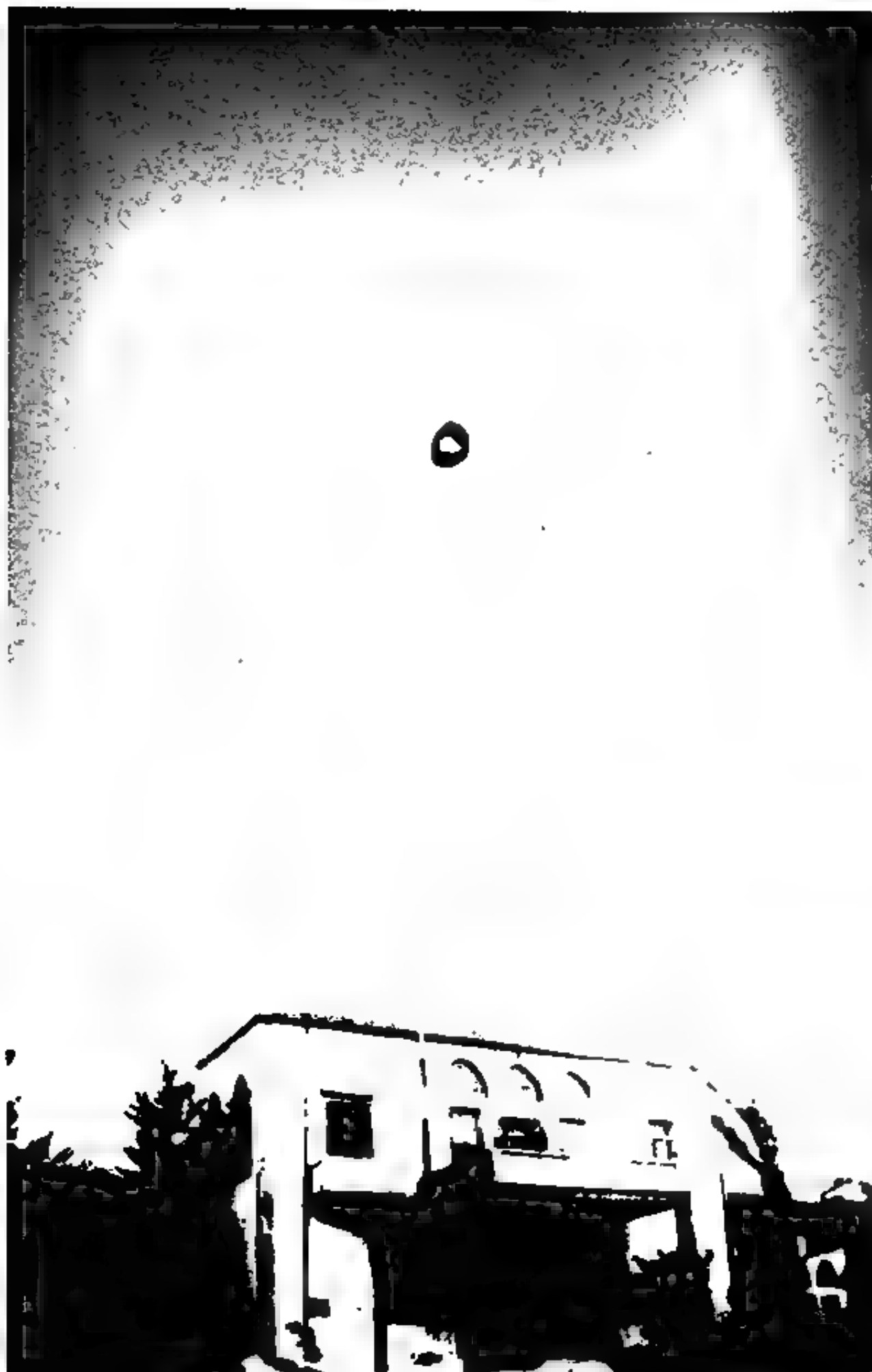
السنة الاعدادية الاخيرة مع موسى سليمان في فؤار انطلياس.



اسفل اليمين. بيت مري في بلدة السنة الجامعية الاولى (١٩٤٣ - ١٩٤٤). الى يساري فؤاد واسامة ورشيد لافقي.

في ربيع ١٩٤٦ زارني في الجامعة كامل واخيه اكرم.





أصعب صفوف الدراسة الجامعية هو صف "الفرشمن"، ليس ذلك لصعوبة المواد أو لكثرة المتطلبات المفروضة علينا بقدر ما هي بسبب الشعور بالوحدة في محيط يعج بالطلاب في سنتنا ولا نجد بينهم لأول وهلة صديقاً أو وجهاً مألوفاً نتعرف إليه. ومع ذلك فلم اجابه مثل هذه التجربة عند تنقالي الى صف الفرشمن في الجامعة الاميركية في بيروت خريف سنة ١٩٤٣. فالمدرسة الاستعدادية كانت جزءاً من الجامعة الاميركية وكان حرمها ملاصقاً لحرم الجامعة. كنا نمارس لعبة الفوتبول والباسكتبول في ملاعبها بالقرب من البحر ونستحم في مسبحها ونحضر حفلات قاعة الـ "الوست هول" ونتمتع بالجلوس في مقهاها "الميلك بار". وكان هناك عدد من رفاقي الذين تخرجوا معي من الاستعدادية فانتقلنا سوية الى صف الفرشمن. لا اذكر من المواد التي درستها في الفرشمن سوى مادة الدكتور انيس فريجه في تاريخ الادب العربي، لا بسبب محتوى المادة بل

بسبب شخصية انيس فريجة واسلوها في التدريس. كان مختصاً بعلم
الالسنيات. درس في اميركا والمانيا وعاد الى لبنان في اواخر
الثلاثينات، والتحق بدائرة الادب العربي في الفترة التي التحق فيها
بالجامعة شارل مالك وقسطنطين زريق، الاول لتدريس الفلسفة
والثاني لتدريس التاريخ. كان انيس فريجة تجسداً للاستاذ الشارد
الذهن المأخوذ بموضوع اختصاصه، فيبدو وكأنه لا يعي ما يجري
حوله. الا ان وراء هذا كانت تكمن شخصية قوية وعقل حاد لا
يخفى عنه شيء. لا يهمه حضورنا في الصف او غيابنا عنه، فلم
يكن يقرأ لائحة اسماء الطلاب في بداية محاضراته. اعلن في بداية
الفصل ان هناك قاعدة واحدة علينا التمسك بها في صفه: عدم
التشاؤب. وبالطبع كان اول ما فعله ثلاثة من الحرائيق، (وعلى
رأسهم، كالعادة، رمزي صهيون) هو التشاؤب المطول في اللحظة
التي بدأ الاستاذ فريجة محاضراته الاولى. حالاً توقف عن الكلام
والتفت اليهم بتؤدة وأشار بيده قائلاً بالانكليزية: "انت وانت
وانت: أوت" وخرج الثلاثة كالنجاج دون ان ينيسوا بكلمة. بعد
ذلك لم يتشاؤب احد في الصف طيلة الفصل.

ألف انيس فريجة كتباً قرأت منها كتاباً واحداً بعد مرور عدة
سنوات على تخرجي (وجدت نسخة منه صدقة في مكتبة خياط) وهو
مجموعة من القصص الشعبية سردها انيس فريجة على ابنه الصغير
رضا في سنوات طفولته بلغة شبه عامية ثم وضعها دون ان يغير في
اسلوها او تركيبها في كتاب بعنوان "اسمع يا رضا". وجدت
الكتاب ساحراً في عفويته وفي لغته البسيطة النابضة بالحياة. كان
حدثاً ليس على الصعيد الادبي وحسب بل وايضاً على الصعيد
الفكري الثقافي. لأول مرة يتناول لغوي كبير القصة الشعبية ويكتبها
بلغة تكاد ان تكون عامية في تلك الفترة التي كان موضوع «العامية»

و"الفصحى" مدار نقاش حاد في الاوساط الادبية انبرى له سعيد عقل ويوسف الخال. لست ادري إن كان هدف انيس فريجة في "اسمع يا رضا" تقديم مثلاً حياً على الكتابة المبسطة في لغة عربية قريبة الى العامة يمكن استعمالها بدلاً من الفصحى المعقدة او انه قصد فقط نشر مجموعة القصص الشعبية حفاظاً عليها. لكن الغريب في الامر انه في الصف الذي درّسنا فيه اللغة العربية والادب العربي لم يتناول اطلاقاً موضوع العامة والقضايا المتفرعة عنها. بالعكس كان محافظاً في معالجته للغة وفي تحليله للادب العربي.

التقيت بانيس فريجة قبل وفاته ببضع سنوات. كان جالساً فوق احد المقاعد بجانب الطريق وراء بناية المكتبة. ظنته يتمتع بمنظر صين والبحر الممتد امامه. لما عرفته بنفسه تذكرني حالاً وطلب اليّ ان اجلس الى جانبه. كان يضع نظارات شمسية فلم انتبه الى انه لا يحول رأسه يمينا او يسارا عندما يتوجه اليّ بالكلام، اذ ظننت انه يركز نظره على منظر البحر امامه. وبعد ان سألني عن عملي واوضاعي في اميركا، حدثني عن حياة التقاعد وصعوبة العيش في بيروت وبخاصة بعد ان شح نظره ولم يعد بإمكانه القراءة والكتابة. والتفت نحوي قائلاً: "والآن اكاد لا ارى شيئاً." بعد قليل جاء من يعود به الى البيت.

لست ادري ما الذي دفعني الى الفلسفة. كنت اشعر بقلق داخلي وشوق عميق الى الخروج مما كنت فيه من "الضلال" والتخبط الفكري. فوضعت كل الاعتبارات العملية جانباً، وقررت التخصص

في الفلسفة. ولم اخرج عن هذا الخط الا بعد حصولي على الماجستير في الفلسفة من جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٨، حين ادركت اني سأصبح فيلسوفا محترفا ان لم اغير موضوع اختصاصي. وفي احر لحظة قررت بمساعدة استاذي الالماني ارنولد برجشترسر، الالتحاق بقسم "تاريخ الحضارات" حيث اتممت دراستي للدكتوراه في سنة ١٩٥٣. الا اني لم اندم يوماً على دراسة الفلسفة، فقد امدتني بقاعدة فكرية واسعة ومكتني من تفهم القضايا المعرفية والمنهجية التي جابهتها فيما بعد في عملية التحليل الاجتماعي والنقد الحضاري.

٣

تسلمت، وانا اكتب هذه السطور، رسالة من محمود شريح ضمنها صورة عن مقال كتبه في تلك الفترة من حياتي الجامعية وظهر في مجلة "العروة" التي كانت تصدرها جمعية العروة الوثقى في الجامعة. وكان يترأس تحرير "العروة" صديقي وزميل في اللودج محسن مهدي (الذي لحق بي فيما بعد الى جامعة شيكاغو واصبح بعد تخرجه استاذاً في جامعة هارفرد، وما يزال). بين الاسماء الواردة في هيئة تحرير "العروة" ممدوحة السيد (تزوجت من رجل اعمال اميركي وتقيم حالياً في نيويورك)، وعمر السقاف (وزير الخارجية السعودية في الخمسينات)، وزيد الشواف، رفيقي ورفيق عمران في تومسون هول (التحق بالسلك الدبلوماسي السعودي).

عنوان المقال "طريق الوجوديين" ويتناول الفلسفة الوجودية كما تعرفت اليها من خلال كتابات كيركجارد وبردياييف ذات الاتجاه الديني (لم نكن قد اطلعنا بعد على كتابات هيدجر وسارتر وغيرها

من الوجوديين الملحددين). ينطلق المقال من موقف "الشك" و"البلبلة الفكرية" التي كنت اعانيها الى ان يصل الى تحديد المدرسة الوجودية، "اذا صح لنا ان نستعمل هذا التعبير للإشارة الى هذا اللون من الفلسفة،" والى تفسير النظرة المنبثقة عنها "التي لا ترضى بالفلسفة كعلم منفصل عن حياة الانسان اليومية (وترفض) الالتجاء الى التجرد العقلي."

قرأت المقال بدهشة، كاني اقرا بحثاً او دراسة لاحد طلابي المتفرقين. رغم الغموض الذي رافق بعض المفاهيم التي وردت فيه، عرض بوضوح وبدقة مؤثرة المصاعب الفكرية والتساؤلات التي حكمت تلك المرحلة من تكويني الذهني. ذكرني هذا المقال الاول بالتركيز الذي كنت (وما زلت) اضعه على ضرورة ربط الفكر بالممارسة اليومية، وتقززي من الافكار المجردة المنفصلة عن الواقع المعاش.

من هنا كان انجذابي نحو الفلسفة الوجودية (كيركجارد ونيثشه وسارتر) وفيما بعد، نحو الفلسفة الماركسية (مركس وانجلز، و"مدرسة فرانكفورت" والماركسيين "الاوروبيين": ادورنو، ولوكاتش، وميرلو - بوتي، وهابرماس)، ونظرية النقد الحضاري (فرويد، لاكان، بارت، فوكو، دريدا).

وما ادهشني قرب اسلوبي في الكتابة آنذاك الى اسلوبي الحاضر في الكتابة، ليس فقط من حيث تركيب الجمل والتعابير اللغوية (وفي عادة استعمال القوسين للتفسير الجانبي) بل ايضاً من حيث "روح" اللغة والمفاهيم الاجنبية التي اخترقت كل مقطع من مقاطعه. مثلاً: "اقوى حالات الشك لا تنأى عن الشك الصميم بل عن البلبلة العقلية التي لا تستطيع الوصول حتى الى الشك. في البلبلة، في عدم المقدرة على اعطاء حكم بلا او بنعم، يثبت اليأس اقوى جذوره في

اعماق الشخصية. في هذه الحالة، لا تعي الشخصية بل تسير في ظلمات موحشة تتقاذفها اشباح هي من جبابرة العقل الانساني الذي، عندما يحلوه ان يتجبر، يتجبر عليه ابناؤه - اعداؤه الكاسميين في اعماقه.

... اذا اخذنا المدرسة الوجودية - اذا صح لنا ان نستعمل هذا التعبير للإشارة الى هذا اللون من الفلسفة - وحاولنا ان نتفحص نظرتها بهذا الصدد لوجدناها واضحة وصریحة. فالنظرة الوجودية نظرة لا التباس فيها: هي في مبدئها الاساسي لا ترضى بالفلسفة كعلم منفصل عن حياة الانسان اليومية بشكل تكوّن منه دائرة منفصلة عن دوائر العالم والمعرفة. الفلسفة الحقّة، في نظر الوجوديين، هي الفلسفة التي تتبلور في الوجود برفضها الالتجاء الى التجرد العقلي. الحياة هي مسرح الفلسفة، والفلسفة هدفها الحياة - والحياة والفلسفة يلتقيان كيانياً بشكل وجود (حي)، وجود انساني واع.

"الوجود الشخصي: الحقيقة الاولى التي على اساسها تتشكّل حياة الانسان. في ضوء هذه الحقيقة العلمية، هذه الحقيقة التي لا نحتاج الى "الفلسف" للوصول اليها، نستطيع ان نحرك خيوط الحياة التي نرى اننا خالقون بأن نحيا. وانا عندما اتكلم بصيغة الجمع لا اعني المجموع العددي - اذ ان الجمهور ابعد الموجودات عن عالم الشخصية - بل اعني الاشخاص، الافراد الذين يكونون المجموع، اذ هم كأشخاص لا يكونون مجموعاً الا بالمظهر السطحي. الكم الشخصي، والـ "انا" هو الـ "شخص" بأكمله - الشخص بوحده وباعماقه وبفهمه..."

فحاة، في مطلع خريف ١٩٤٥، امتلأت الجامعة بالفتيات. رأيناهن يوم التسجيل. عشرات يقفن في صف طويل. يتصاحكن ويتحدثن بلغة لم نسمعها من قبل. وعلى عادته قال لبيب ييقين العارفين. "اهن روسيات." لكن سرعان ما اكتشفنا ان اللغة التي يتكلمن بها كانت البولونية، وانهن فتيات بولونيات جلبتهن الحكومة البولونية المؤقتة في لندن الى لبنان عن طريق ايران.

حتى ذلك الحين كان عدد الاناث في الجامعة لا يتعدى نسبة العشرة بالمئة من مجموع الطلاب، وكُنَّ يتمتعن بمركز متفوق علينا في ميزان القوى. كان الذي ينجح بيننا في اصطحاب زميلة من زميلاته في الصف الى الميالك بار او الى فيصل لتناول فنجان شاي او تدخين سيجارة لاكي سترايك معها، يُنظر اليه بغيرة واعجاب. واذا نجح باقناعها باصطحابه يوم السبت الى السينما لحضور حفلة بعد الظهر فهو دون جوان عصره بلا منازع. لذلك لم يكن مستغرباً عندما حظَّ هذا العدد الغفير من البولونيات بيننا (وكثيرات بينهن كنَّ على مستوى راقٍ من الجمال) ان يثير قلق (ان لم يكن ذعر) فتياتنا العربيات، وان يؤدي الى تغيير جذري في تصرفهن نحونا. وبالفعل فقد اصبحت العلاقات بين الطلاب والطالبات منذ ذلك الحين اقرب الى العلاقات "الديمقراطية" مما كانت عليه في اي وقت سابق. وكانت اولى نتائج مجيء الفتيات الاجنبيات نشوء صداقات بين الجنسين، ولم يعد مشهد طالب وطالبة جالسين الى مائدة منعزلة في الميالك بار، او على مقعد بعيد من المقاعد المشرفة على البحر، يثير الانتباه الذي كان يثيره المشهد نفسه فيما مضى.

لمحتها في صف برفسور روبرتس في التاريخ الاغريقي والذي

كان يُعقد في الطابق الاول من منى كولدج هول. دخلت مع رفيقتها وجلست دون تردد في مقعد امامي مباشرة. ترتدي فستاناً أبيض تُعقد أزواره من الخلف. عددهم واحداً واحداً، ستة ازرار بيضاء كبيرة. كان في وجهها جمال طبيعي لكن قامتها كانت ملفتة للنظر: ممثلة الجسم، ممشوقة القوام، طويلة الساقين، تسير بحرية ورشاقة. تطلعت حولها بعد ان استقرت في مقعدها، ثم استدارت ملفتة نحوي. حاولت الابتسام عندما التفت عيوننا لحظة سريعة، لكنها ارتدت الى جلستها الطبيعية في مقعدها فتركتني موجهة ابتسامتي الى شعرها المرسل على كتفيها. رايت لييب زويا يتابعنا بنظره، وكان جالساً بمحاذاتها. رفع حاجبيه الكثين وغمزي غمزة ذات معنى. ادرت نظري عنه واخذت اعدّ الازرار البيضاء الكبيرة ثانية واتأمل في شعرها وكتفيها. تأخر الاستاذ روبرتس عن موعد حضوره، وعلا الحديث بين الطلاب. تلملت في مقعدها ووضعت ساقاً على ساق. وخيل الي اني سمعت احتكاك كلسات النيلون التي احتوت ساقها. شدت طرف فستانها بتأن الى ما فوق ركبتيها واسندت ظهرها الى مقعدها.

عند انتهاء المحاضرة، جمعت كتيبي استعداداً للنهوض وفجأة رايت وجهها على بعد شبر او اقل من وجهي. تجمّدت في مقعدي. سألتني بلطف ودون تكلف: "في اي بناية يُعقد صفّ البروفسور عيساوي؟"

استعدت هدوئي، واخبرتها بصوت رزين اني في طريقي الى صف عيساوي ويسعدني مرافقتها. بصمت سرت الى جانبها. كان صف عيساوي في البناية الصغيرة بالقرب من بوابة "الطبية" التي لا تبعد عن كولدج هول اكثر من مئتي متر. اخذت أبحث عن شيء ما

اقوله. شعرت بنسمة من هواء البحر المُشْبَعَة بعبير الصنوبر تلامس وجهي.

واخيراً اشترتُ الى البناية وقلت: "ها هي البناية."

قالت: "والصف، في اي طابق؟"

"الطابق الثاني، اول غرفة الى اليمين."

قالت: "ثانكيو،" وصعدت بسرعة على الدرج الذي عَجَّ

بالطلاب والطالبات.

في قاعة الدراسة وجدتها جالسة في احد المقاعد الامامية.

جلست في اول مقعد شاغر صادفني، وأنا اؤنب نفسي لعدم دعوتها لمرافقتي الى الميك بار بعد انتهاء الدرس. حتماً سيدعوها لبيب او غيره من افراد صفنا.

في اليوم التالي رايتها جالسة في الميك بار مع رفيقتها وقد

جلس حولهما عدد من الطلاب من صفنا، وكانوا يتنافسون في التحدّث اليهما بصوت عالٍ يتخلله سرد النكات بإنكليزية مهلهلة وفهقة عالية مستمرة. ولما رأني لوحت بيدها مسلّمة، ثم رايتها تهمس في اذن رفيقتها التي رفعت رأسها وصوّت نظرها الى مكان جلوسي. ثم قامت وتوجّهت نحوي وعلى وجهها ابتسامة مشرقة.

"أين كنت هذا الصباح؟ لم ارك في المحاضرة؟"

دعوتها الى الجلوس وقلبي يخفق لا خوفاً او حياة بل لسروري

البالغ لقدمها اليّ على مرأى من زملائي الذين كانوا يراقبون ما يجري بصمت وامتنعاض واضح.

قلت وانا ادعوها الى الجلوس بجانبني: "تأخرتُ في السهر

الليلة الماضية. لم استيقظ حتى العاشرة."

"في السهر؟ في السهر اين؟"

"كنت اطالع في غرفتي حتى ساعة متأخرة."

فابتسمت ثم تطلعت الى حيث جلست رفيقتها مع الطلاب الذين علت اصواتهم من جديد، وقالت: "هؤلاء الثلاثة زملاء لنا في الصف. أتعرفهم؟"

"اعرفهم واحدا واحدا."

"لماذا يتحدثون ويضحكون في الوقت نفسه، ولماذا يقطع بعضهم بعضاً؟ اني أكاد لا افهم كلمة واحدة مما يقولون."

"انهم في حالة المرح الشديد. انهم لا يستطيعون تمالك انفسهم لجلوسهم معك انت ورفيقتك الجميلة."

قالت: "هاو سويت؟"

كانت تتكلم الانكليزية بطلاقة وبلكنة حلوة.

- اسمها هيلدا وكانت من لوفوف في بولونيا. طيلة معرفتي بها في بيروت حتى تخرجنا كانت تحلم بالعودة الى بولونيا. اخبرني ان حياتها توقفت مذ أجبرت على مغادرة بلادها. كانت كلما سمعت مقطوعة لشوبان انهمرت دموعها. في تلك الفترة عُرض في سينما الاوبرا في ساحة البرج فيلم اميركي يدور على حياة شوبان وموسيقاه بعنوان "A Song to Remember"، وذهبنا بعد ظهر يوم السبت لمشاهدته. خفت عليها من اثر الفيلم في نفسها. بكت طيلة فترة العرض، واستمرت الدموع تنهمر من عينيها حتى بعد خروجنا من السينما.



بعد انتهاء امتحانات فصل الخريف، قررنا ان نحتفل بتناول العشاء في مطعم الـ "لو كولوس" في الزيتونة. تناولنا وجبة ما زلت اذكر طعمها. طلبنا زجاجة نبيذ كسارة وشربنا معظمها قبل ان يأتي

الطعام. ضحكنا ملء قلوبنا، وزاد من غبطني رؤية هيلدا في حالة من المرح لم ارها في مثلها منذ تعرفني اليها. كانت ترتدي فستاناً ربيعياً أنيقاً ونصع احمر الشفاه (وكانت نادراً ما تستعمل مساحيق التجميل) وبدت جميلة جذابة الى بعد حد. كانت علاقتنا ما زالت لا تتعدى مسك الايدي، والقبلات السريعة نسترقها في مشاويرنا على الروشة او في الاماكن النائية في حرم الجامعة. اصعب الامور علينا ان نخلو الى بعضنا بعضاً. كانت النظرات تتبعنا دائماً حتى في ظلمة السينما. وبما ان هيلدا كانت تكبرني بثلاث سنوات، فقد شعرت في بادئ الامر ان لها اليد الطولى في علاقتنا. لكن الامور ما لبثت ان تغيرت ورست علاقتنا على المساواة.

بعد العشاء ذهبنا الى الكيت كات، وكنت قد ارتدته للمرة الاولى مع بعض الاصحاب في السنة الماضية، ويقع في الجهة المقابلة للمطعم. عبرنا الشارع ركضاً وهيلدا تضع ذراعها حول ذراعي. كان الروف الصيفي المطل مباشرة على البحر قد افتتح، وامتلأ بالموائد الصغيرة والاضواء الملونة التي تلالاً انعكاسها فوق صفحة البحر. قادنا النادل الى مائدة صغيرة بالقرب من البحر حيث يمكن مشاهدة المرفأ وأضواء اتية من ضواحي انطلياس والجبل، وحيث كنا نسمع ارتطام الامواج بالصخور عندما يتوقف عزف الاوركسترا.

كان لحن الموسم في بيروت آنذاك تانبجو "كارمن" من تلحين موسيقار لبناني من اصل ارمني يقيم في باريس. انه اللحن الذي كلما سمعت صدهاء يذكرني بهيلدا وبيروت وحياتي الجامعية. طلبنا ويسكي مع الصودا ثم رقصنا على لحن "كارمن" وشاركنا في الرقصات الاخرى الهادئة، ولم نعد الى مائدتنا الا عندما اخذت الاوركسترا تعزف الرومبا الصاخبة. بقينا حتى قاربت الساعة منتصف الليل علي ان اعود قبل ان تغلق بوابة الجامعة الرئيسية في تمام الثانية

عشرة. اخذنا تاكسي انطلق بنا من الكورنيش الى رأس بيروت، حيث كانت تقيم هيلدا في بناية جديدة بالقرب من القنصلية التركية، ووصلت بوابة الجامعة في اللحظة التي كان الحارس يهم باغلاق الباب الخارجي.

٦

تزامنت هذه المرحلة السعيدة من حياتي مع المرحلة التي شهد فيها العالم افطع حرب في التاريخ. كانت هيلدا ترفض قراءة الصحف او التحدث عما كان يجري في اوروبا، وتغمض عينيها كما ظهرت مناظر القتل والدمار على شاشة السينما.

لم تكن تكره الحرب وحسب، بل كانت تكره كل انواع العنف، ولا تستطيع تحمل مشاهد الخصام الذي كان ينشأ احياناً بين الطلبة، حتى لو اقتصر على مجرد الصياح والتهديد. واصرت مرة في حينها دنيا على الخروج في منتصف الفيلم بسبب الضرب المبرح الذي الحقه بطل الفيلم بأحد اعدائه الشريرين وحمل المتفرجين يصفقون بسرور وحماس.

ساد

حدثتها ذات مرة ونحن جالسين في الميالك بار عن الحزب، فقالت بشيء من السخرية: "وتظن انك ستنقذ البشرية من شرورها؟" مما جعلني ألوذ بالصمت لفترة طويلة. كثيراً ما تستفزني عن قصد، وبعد ان تنجح نعود الى الابتناسم والى مراضاتي بشتى الوسائل.

تعلمت منها اشياء كثيرة، مثل الرفق في معاملة الآخرين، والتكلم بصوت منخفض، ومحاولة تناول الطعام ببطء، والتمتع

بالموسيقى والمناظر الجميلة دون التعليق عليها. كانت هيلدا أول فتاة اجنبية تقوم ببني وبينها علاقة حميمة. جسدت لي كل ما كنا نسمع عنه حول الفتاة الأوروبية المتحررة.

٧

توقفت عن الكتابة لعدة ايام كي أنظّم افكاري واستعيد احداث تلك الفترة الحلوة من حياتي. اشعر اني استطيع الاستمرار في الكتابة عن علاقتي بهيلدا لأنام واسابع بسب الغبطة التي تغمرني بها هذه الذكريات. أجد نفسي في عودتي الى ذلك الماضي كمن قام بزيارة يصعب عليه نضها، فيختلق الاعذار لتأجيل موعد الانصراف.

اتي فصل الربيع بسرعة، وفي الربيع تتجدد الحياة في بيروت. يتوقف المطر ويتحول البرد الى دفء يسري في الجسد والروح معاً، فنخلع معاطف الشتاء الثقيلة ونرتدي ثياب الصيف وتمتلئ الايام بالضوء ولنسيم العطر. الاشياء كلها تبدو جديدة مجلوة، واضحة لخطوط، ناصعة الالوان. في المساء، بعد يوم مليء بضوء الشمس وزرقة السماء، كنت عندما اجلس وحيداً، بعد العشاء، في الشرفة الواسعة في اللودج انظر الى البحر واستمع الى الموسيقى التي كان يحيى حمصي يلعبها على الجرمافون (بخاصة "سوناتا القمر") ويغمرني احساس بالغبطة والفرح الى حد كان يجعل الدمع يطفّر من عيني.

في تلك الفترة كنت ما زلت نظامياً متشدداً على نفسي. امارس امتناعاً عن اكثر ما كنت ارجب فيه لفترات زمنية احدها لنفسي، مثل ارتياد السينما وتدخين السجائر، واتبع نظاماً صارماً موزعاً بين

الدراسة والالعاب الرياضية فالجأ الى الفراش باكراً واستيقظ مع طلوع الشمس. واستمر على هذا المنوال حتى موعد الامتحانات الفصلية. وعندما يأتي الربيع اشعر بأنى استحق كل ما نعمت به من سعادة وغبطة.

في تلك السنة اصبحت دراستي اكثر تركيزاً واتسعت آفاق قراءاتي. كنت اقضي اوقاتاً اطول في المكتبة المخصصة لدائرة الفلسفة. كان عدد الطلاب المتخصصين في الفلسفة لا يتعدى ستة أشخاص، فيهم ليب وفؤاد وطالبتان احدهما من حلب (وكانت صديفة فايز) والآخرى من عائلة يونانية تقيم في بيروت. اما عدد الاساتذة فقد انخفض (بعد تعيين شارل مالك وزيراً مفوضاً الى واشنطن) الى استاذين، يساعدهما معيدان محضران لئيل شهادة ماجستير في الفلسفة، هما فايز صايغ (توفي في نيويورك ١٩٨٠) وماجد فخري (تقاعد عام ١٩٩٠، ويقوم الآن في واشنطن).

في ذلك السن لم اعرف الكثير عن الحب كمعظم افراد الجيل الذي انتميت اليه. كان الحب بالنسبة لنا موضوعاً روحياً يختلف بل يتناقض مع الحب الجنسي. ويقدر ما كن الحب عميقاً فهو سامياً على المشاعر والرغبات الجسدية. كان الحب الصادق عذرياً، والجنس ممارسة اخرى بعيدة عن الحب.

قلت لهيلدا ذات يوم ونحن نسير في الطريق خلف ملاعب التنس، اني احبها. (كنا نقرأ حياة كيركجارد في ذلك الوقت وعلاقة الحب التي جمعتها بريجينا اولسن). التفتت اليّ بدهشة، ثم امسكت بيدي وقبلت صفحتها دون ان تنفّوه بكلمة. منذ ذلك الوقت تطورت علاقتنا من علاقة صداقة الى علاقة حب.

على هضبة تشرف على ملتقى البحر بمنطقة الرملة البيضاء، حيث يقوم اليوم اوتيل كارلتون، كان هناك بيت قديم ذو سقف قرميدي احمر حوله صاحبه الى مقهى على النمط الاوروبي واسماه اوريزون بلو، كنا نرتاده احياناً لتناول الشاي والاستماع الى اسطوانات الموسيقى اللاتينية. قبل التخرج قرر طلاب قسم الفلسفة اقامة حفلة صغيرة في الـ اوريزون بلو اشرف عليها فايز صايغ بصفته "الشابرون" علينا.

وصلنا انا وهيلدا في الخامسة مساءً، وكان زملاؤنا وصديقاتهن يرقصون على انغام التانغو والفوكس تروت. طلبت هيلدا نبذا احمر وقالت بمرح: "هيا نرقص". أسندت خدها الى خدي بشكل تلقائي ورقصنا بصمت. ثم رفعت رأسها فجأة وقالت مبتسمة: "لماذا لا تقبلني؟" ودون ان اجيب لمست خدها بشفتي بسرعة. نظرت اليّ ثانية وقالت شيء من التهكم: "هل لديك قبلة اخرى اكثر حرارة؟"

ارتبكت، لم أدري ما اقول، وضقت لارتباكى. الا ان هيلدا بقيت على مرحها. امسكت بيدي وقادتني الى المائدة وجلسنا نتحدث مع زملائنا وكأن شيئاً لم يكن.

في نهاية الاسبوع، وكان الجو حاراً رطباً. اقترحت هيلدا ان نستحم في البحر وكان مسبح الجامعة قد فتح للموسم. قلت لها ان ماء البحر ما زال بارداً رغم حرارة الجو، لكنها اصررت على الذهاب.

"لنذهب الى مسبح رملي، لا الى مسبح الجامعة."
ذهبنا الى مسبح السان سيمون، وكان عدد السابحين فيه لا

يتجاوز اصابع اليد. خلعت ثيابي في الكابين المخصص للرجال، وجلست على الشاطيء انتظر هيلدا. وجاءت مرتدية مايوها أسود من قطعة واحدة زاد من نضاعة بياضها. بدت وهي تسير نحوي بقوامها المشقوق وساقها المنسجمتين جميلة جذابة بشكل يلفت النظر. انها المرة الاولى التي اراها في المايوه. تمددت الى جانبي بصمت وعندما اشتدت حرارة الشمس سبحنا في الماء البارد الهاديء. اخذت ترشقي بالماء ثم خرجت نركض على الشاطيء الرملي وتدعوني الى اللحاق بها. كانت فرحة تضحك بملء قلبها، كأنها لا تعرف همًا. في التاكسي القديم الذي وجدناه امام المسيح جلست ملتصقة بي، واضعة يدها على ركبتي. ووضعت يدي فوق يدها

قالت: "والى اين سنذهب الآن؟" كانت الساعة قد قاربت السابعة مساءً. لم افهم قصدها. في مثل هذا الوقت كنت دائماً اسير معها الى نزلها ثم استمر في طريقي الى اللودج.

قالت: "لا اريد العودة الى النزل."

"والى اين ترغبين الذهاب؟"

"لا ادري. الا تعرف مكانا جميلاً نذهب اليه؟"

"يمكننا تناول ساندويش عند فيصل."

نظرت اليّ ثم قالت بصوت خافت: "لا بأس. كان يوماً

جميلاً. وضافت: Let's call it a day."

اوصلتها الى النزل وسرت الى اللودج بقلب مثقل.

اخيراً، وبعد حفلة التخرج، خلونا الى بعضنا بعضاً. لم

نذهب الى شقة صديق يقيم خارج الجامعة (لم يخطر ذلك على بالي!)
ار الى احد فادق الجبل، بل ذهبنا في "شطحة" الى خلاء الطبيعة
الواسعة. صعدنا الى ضهور الشوير في الباص الذي يغادر بيروت في
الصباح ويعود بعد الظهر.

ترجلنا في نهاية الخط عند غابة بولونيا. كانت مقاهي الغابة
مغلقة، فلم يبدأ موسم الصيف بعد. سرنا في الشارع العام الخالي
كلياً من المارة والسيارات الى ان وصلنا الى دكان جلس امامه صاحبه
يدخن النارجلية. كان يراقب ونحن نسير نحوه. عندما اقتربنا وقف
محياً ودعانا الى تناول فنجان من القهوة. قلت له اننا نريد ان نتمشى
في الغابة ونعود بعد ذلك لتناول القهوة. فأشار بيده الى طريق جانبية
تتفرع عن الشارع العام وتنحدر بين اشجار الغابة وقال: "الطريق
توصل الى فوق الخنشارة. المنظر يطل على الوادي وصنين. منظر
جميل جداً."

سرنا في الطريق الضيق الى ان حجبنا الاشجار. نظرت باتجاه
الشارع العام فلم اتين الا اشجار الغابة. كنا اخيراً وحيدين، لا
عيون ترصدنا. التفت الى هيلدا والتفتت الي، وفي حركة واحدة
تعانقنا عناقاً حاراً كأننا نلتقي بعد فراق طويل. سرنا يدا بيد وجلسنا
فوق هضبة تشرف على الخنشارة وعين القبو ويسكتنا. احسست
بفيض من السعادة يغمرني. لم ادر ماذا افعل. قبلتها على شفيتها
وعلى عينيها وتلمست وجهها وصدرها بحرقة الضرب الذي لا يرى
الا باصابع اليد.

لست ادري ما الذي توقعتُه مني ان افعل. كان واضحاً انها
تعرف اكثر مني. ولكن كان جهلي المطبق اكثر وضوحاً. كنت لا
اعرف الا ما تعلمته بالحدس ومن خلال تبجحات الذكور الجهلة
حول امثال رمزي صهيون. فانهى العناق المرتعش المحموم بسرعة.

(نبقى، نحن الذكور، على غطرسنا وجهلنا طيلة حياتنا، نحب ونتزوج ولا نعرف من الحب الا رعشتنا الانانية، غافلين عن القريب البعيد الذي بين فراعينا).

انتبهت فجأة الى الصمت الذي كان يلف ما حولنا. جلسنا لا نتفوه بكلمة. سمعت صوت غصن يتكسر، كأنما تحت وطأة قدم. التفتت هيلدا الى مصدر الصوت. كان هناك حركة بين الحشائش في ظل الاشجار. قلت لها بصوت منخفض: "لا بد انه طير ار ارنب." وفي تلك الفترة ادركت الخطر الذي وضعنا انفسنا فيه بالمجيء الى هذا المكان النائي. وومضت في ذهني ابشع التصورات، وسري خوف عميق في عروقي. الا ان هيلدا لم تعر الموضوع اهتماماً، وشدتني اليها قائلة بصوت طبيعي: "لا تأله للامر."

تملكني الهلع. كنا في عالم، وانا الآن في عالم آخر هي لا تشعر به. انصب تفكيري على ايجاد مخرج من الوضع الذي نحن فيه: ما هي احدى الطرق للوصول الى الشارع العام. همست باذنها: "يجب ان نغادر حالا. في هذه اللحظة". اظهرت بعض الامتعاض، لكنها لما شاهدت ملامح الخوف على وجهي قالت: "او كي". امسكت بيدها وتسلقنا الهضبة بسرعة واخذنا نركض في القادومية المؤدية الى الشارع الرئيسي. وصلنا الى الشارع العام دون ان نلتقي باحد. شربنا فنجانا من القهوة مع صاحب الدكان ثم ركبنا الباص الى بيروت.

عدت الى لبنان بعد انتهاء الحرب الاهلية، وأول ما فعلته اني صعدت الى غابة بولونيا. كانت الشمس مشرقة والرياح خفيفة تهب من جهة صنين، تماماً كما كانت تهب في ذلك اليوم من ايام الربيع. لكن كل شيء في الغابة وحولها قد تغير. لم تعد غابة بل بلدة صغيرة انتشرت بيوتها بشكل عشوائي بين الاشجار التي ذبلت او احترقت او

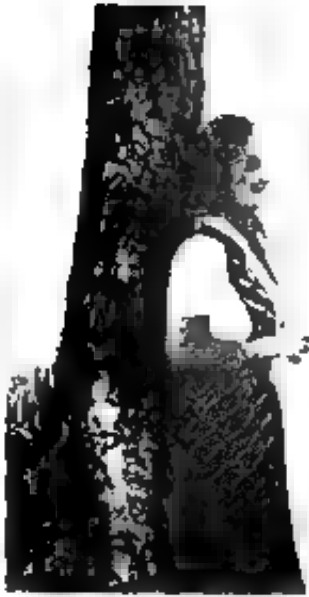
تحولت الى اغصان عارية. بحثت عن الدكان الذي تناولنا فيه القهوة فلم أجده. اما الطريق العام فلم يتغير كثيراً وامتلأ بالحفر وقامت على جانبيه محلات صغيرة لبيع الالبسة والحلويات، ومقهى صغير عند المفرق المؤدي الى المروج، حيث جلس جنود سوريون يحترسون القهوة بصمت.

١٠

في نهاية خريف ١٩٤٧ سافرت الى فلسطين ومنها الى الولايات المتحدة. كان وداعنا قصيراً. كانت حزيمة صامتة. ها انا اغادر بيروت وهي ما زالت في غربتها. والآن يسير كل في طريقه. لكن طريقها كان مسدوداً، فهي لا تدري كيف ومتى ستعود الى وطنها. اما طريقى فكان مفتوحاً. منذ اتخاذى القرار بتكملة دراستي في اميركا واستلامي القبول من جامعة شيكاغو وانا اسكن المستقبل الذي كنت الآن على عتبة. ودعتها عند محطة جنبلاط بالقرب من النزل الجديد الذي انتقلت اليه مع زميلاتها. عند مجيء الترام قبلتها على خدها بسرعة. ناولتني علبة صغيرة احاط بها رباط حريري.

”هدية صغيرة ستبقى معك طويلاً.“

بقيت في مكائها والترام يتعدى عنها. لوحت لها بيدي ثم جلست في مقعد منزول وفتحت الهدية. كانت بطاقات ”كارت فيزيت“ طبع عليها اسمي بالانكليزية بأحرف نافرة على كرتون من النوع الفاخر. بعد بضعة ايام كنت في القدس مع فايز صايغ نتمم معاملات السفر الى اميركا.



التقطت هذه الصور الثلاث
ههنا أثناء رحلتنا إلى غابة
بولونيا في ضهور الشوير في
ربيع ١٩٤٧.



If you want to
know how I look
when I am happy,
just look at this picture
16. ٥. ١٩٤٧ - ٩:١٥ p.m. Amman

على ظهر صورة تظهر فيها
سواءً كتبت ههنا هذه
الكلمات. إذا أردت أن
تعرف كيف أبدو عندما أكون
سعيدة، فما عليك إلا أن تنظر
إلى هذه الصورة. هـ في
١٩٤٧/٨/١٦

عدد «المروة» الصادر
في نيسان ١٩٤٧.

المروة

مجلة أدبية وثقافية

١

تحريراً: محمد الحرق، الأديب في دار الثقافة العامة، في بيروت

للهرس «المروة» نيسان ١٩٤٧.

فهرس

١	عدد «المروة»
٢	أحداث لا تذهب
٣	الأسواق الفنية في العراق
٤	سرديات جاد الفخبح
٥	وطني
٦	فرقة أو حرقية
٧	جاء الأديب
٨	والفكر
٩	سيرة في شعر
١٠	أدب المذكر
١١	تأثير في ربيعة
١٢	جاء
١٣	تأثير المذكر
١٤	أدب المذكر
١٥	أدب المذكر
١٦	أدب المذكر
١٧	أدب المذكر
١٨	أدب المذكر
١٩	أدب المذكر
٢٠	أدب المذكر
٢١	أدب المذكر
٢٢	أدب المذكر
٢٣	أدب المذكر
٢٤	أدب المذكر
٢٥	أدب المذكر
٢٦	أدب المذكر
٢٧	أدب المذكر
٢٨	أدب المذكر
٢٩	أدب المذكر
٣٠	أدب المذكر



برامة الصبا سنة الجونير
والتعرف الى ميلدا.



أصله الى اليسار، اللودج
والشرفة المطلة على البحر.
الشرفة التي شاركني فيها عمن
مهدي في الطابق الثاني الى
اليمن.

كولاج هول من ملعب الفوتبول، سنة ١٩٤٦

عمن مهدي الى يساري والى يميني ي.س. بعد حفلة التخرج، حزيران ١٩٤٧.





كانت المكتبة الخاصة بقسم الفلسفة تقع في الطابق الثاني من كولدج هول، في الجهة المقابلة لقاعة المطالعة والمكتبة العامة. كنت اذهب الى مكتبة الفلسفة بعد الظهر عندما تكون خالية تماما من الطلاب. فافتح النافذة المطلّة على البحر واجلس الى مقعد مريح واقرا في وحدة تامة الى ان يغلبني التعب او يأتي صديق فأقوم معه الى مطعم فيصل لاحتساء فنجان من القهوة والتحدث الى من نجده هناك من اصدقاء.

كان علي حائط غرفة المطالعة صور لكبار الفلاسفة: سقراط وارسطو وكانت وهيجل. وفي زاوية من الحائط المقابل هناك صور فوتوغرافية وحيدة لرجل في الاربعينات من عمره اسود الشعر ثاقب النظر، لم اكن اعرف من هو. وتخرجت من الجامعة دون ان اعرف هويته. ولم اكتشفها الا بعد مرور عدة سنين عندما رأيت الصورة ذاتها في كتاب حول الفلسفة الاوروبية الحديثة، كانت صورة الفيلسوف الالماني

مارتن هايدجر. كان هايدجر يدرس الفلسفة في جامعة هايدلبرج عندما التحق بها شارل مالك تلميذا زائرا لسنة واحدة قبل الحرب العالمية الثانية. والغريب ان مالك لم يذكر اسم هايدجر اطلاقا اثناء تلمذنا عليه. كان اسم كيركجارد (الذي كان له اثر كبير في فلسفة هايدجر) هو الذي يتردد على لسانه. سألت شارل مالك مرة في اوائل الستينات (وكان عندئذ استاذا زائرا في احدى جامعات واشنطن بعد انتهاء مدة رئاسته للجمعية العمومية في الامم المتحدة) عن هايدجر ولقائه معه في هايدلبرج. قال انه لم يتعرف ليه جيدا على صعيد شخصي لكنه حضر بعض محاضراته. وكان واضحا انه لم يقرأ هايدجر قراءة عميقة، بما فيها "الزمن والوجود"، الذي لم يكن قد ترجم الى الانكليزية بعد. والغريب ان مالك رغم فضوله الفكري كان محدود المطالعة ولم يقرأ طبلة السنوات التي عرفت فيها (اي منذ صف السوفمر حتى السنوات الاخيرة قبل وفاته) الا ما بعد على اصابع اليد من الكتب. كل اسماء الكتب والمفكرين التي سمعته يذكرها كانت تلك التي ردها علينا ايام الدراسة، وهو في الثلاثينات من عمره.

درست على مالك فقط في صف السوفمر وفي الفصل الاول من صف الجونير. كانت "مادة تاريخ" الفلسفة احدى المواد الاجبارية على كافة طلبة كلية الآداب والعلوم في صف السوفمر، وتدرس في شعب مختلفة يرأس كل منها استاذ او احد طلاب الماجستير في القسم (آنذاك اثنان هما ماجد فخري وفايز صايغ). وكانت الشعب تجتمع مرة في الاسبوع في القاعة الكبرى في وست هول لسماع محاضرة يلقيها شارل مالك في الموضوع المعين لذلك الاسبوع. كان للمالك حضور طاغ في الخطابة وتأثير بالغ على مستمعيه. وكان لمظهره دور كبير في ذلك، فقد كان ضخيم الجثة، منقوش الشعر، جهوري الصوت، وكان من انصار

الفلسفة المثالية والمؤمنين بالقيم العليا: بالعقل، والحرية، وقيمة الانسان. لكنه رغم اشادته بالحوار الحر كان سلطوياً في ممارساته الفكرية لا يقبل الاختلاف او المعارضة. لم ادرك آنذاك طبيعة هذا التناقض فيه، ولم ار ما توضح لي فيما بعد، وهو ان الحقيقة الفلسفية الكلية التي كان يتكلم باسمها، كانت "حقيقة" معتقداته الذاتية، والتي فرقت في ما بيننا مع مرور الزمن.

٢

Leopoldina

حينما اعود بذاكرتي الى شارل مالك اتصوره النموذج الكامل للشخصية الابوية التي وضعتها في كتابي "النظام الابوي". انه التجسيد الكلي لما قصده بمقولة "الابوية المستحدثة" التي تحدد التناقض القائم في جوف الشخصية بين النظام الابوي والحداثة.

كان اسلوبه في الحديث ساحراً. ينتقي كلماته بدقة (إن بالعربية او الانكليزية) ويتكلم بوضوح وبجمل كاملة وثيقة كلية (في اي موضوع)، فلا يسمع سامعه الا ان يُصغي اليه بدهشة وانتباه، وان لم يفهم كل ما يقوله. كان صوته يصدر من اعماق صدره، يعلو وينخفض بشكل مسرحي، مليئاً بالحرارة والايمان. من هنا قدرته الهائلة على جعل المستمع "يرى" و"يحس" ما يصف او يقول. اذكر مثله لقراءته الاولى، والدموع، كما قال، تجري من عينيه، لمقال برتراند رسل "صلاة رجل حر". هرعت بعد الصف الى المكتبة وقرأت المقال، وصدى كلمات مالك بتردد في ذهني. شعرت كاني لم أقرأ نصاً واتفهمه كما قرأت ذلك النص وتفهمته. قرأته من خلال الدموع التي اغرورقت فيها عيناها. اصبحت الفلسفة موضوع اهتمامي الاول بتأثير شارل مالك.

من كان يستطيع السماع الى مالك يتحدث عن الفلسفة الاغريقية، عن سقراط وافلاطون وارسطودون ان يقع في حب الاغريق والفلسفة الاغريقية! توقف مرة في احدى محاضراته ليصف سقراط كما يتصوره في شكله، في عدم اكرانه بمظهره ولباسه، "في الدودة الوحيدة في امعائه بسبب اهماله لما كان يتناوله من طعام"، وسجنه، والحكم عليه بالموت، وكلامه الى تلامذته قبل تناول السم. كان الطلبة يصغون اليه كما كانوا لا يصغون الى أي استاذ آخر، بلذة واهتمام كما لو انهم يشاهدون رواية مسرحية مشيرة.

هو الذي ادخل في حياتنا مفكرين ونصوصاً فلسفية لم يسمع بها احد في الاوساط الفكرية في المشرق العربي حتى ذلك الحين. وبالإضافة الى الفلاسفة الاغريق توما الاكويني هو الذي عرفنا بدوستويوفسكي وكيركجارد. ما زلت كلما قرأت دوستويوفسكي او كيركجارد اسمع صوت مالك يتحدث عنهما.

اسلوبه في التدريس كان يختلف عن اسلوبه في الخطابة. في الخطابة يعتمد في اغلب الاحيان نصاً مكتوباً يقرأه بدقة. اما في التدريس فكان يأتي الى الصف دون اعداد. فيفتح الدرس بالطلب الى احد الطلاب بأن يقرأ في النص المحدد لذلك اليوم. وعندما ينتهي الطالب من القراءة ينظر مالك الى الطلبة امامه وي طرح سؤالاً لا يوجهه الى احد بالخصوص، فيرفع الطلبة ايديهم للإجابة. واذا رضي باجوبتهم، اثنى عليهم، بتحكم رقيق. وان لم يرض انبهم. وكان احياناً، وهو يجيب على السؤال الذي طرحه، يخطر بباله موضوع لا علاقة له بالموضوع قيد البحث، وينتقل اليه، ويتكلم بحرارة وحماس حتى نهاية المحاضرة.

دمغ شارل مالك دائرة الفلسفة بمعتقداته الفلسفية الخاصة التي قامت على ارسطو وتوما الاكوييني وعلى الميتافيزيقا اليونانية ولاهوت العصور الوسطى. كان يؤمن بحقيقة ازلية شاملة تنبع من الفلسفة والدين، ويرفض كل انواع الفلسفة الشكوكية او الوضعية او المادية. وكان اعتقاده جازماً ان التراث الغربي القائم على الفكر اليوناني والمسيحية هو اعلى ما توصلت اليه الحضارة الانسانية، وان الحضارات الاخرى، بما فيها الحضارة العربية الاسلامية، حضارات مختلفة، دون مستوى الحضارة الغربية. انعكس موقفه هذا على الصعيد السياسي في نزعة سياسية محافظة جعلته يعادي الحركات اليسارية والتقدمية وعلى رأسها الشيوعية. ووقف ابان الحرب الاهلية اللبنانية الى جانب القوى الطائفية الاشد رجعية. وفي اميركا، منذ بداية حياته السياسية عندما عُيِّنَ سفيراً للبنان في واشنطن ولدى الامم المتحدة قامت شهرته على عداته للشيوعية والاتحاد السوفياتي ودعمه اللامشروط للغرب والتراث المسيحي مما اضفى عليه في فترة الخمسينات (اثناء تفشي الحركة المكارثية المناهضة لليسار والشيوعية) مركزاً مميزاً في الاوساط المحافظة واليمينية والدينية المتطرفة. كانت الدعوات تنهال عليه من جميع انحاء اميركا لالقاء الخطب ضد الشيوعية ولنصرة القيم المسيحية. وبعد اعتزاله العمل السياسي سنة ١٩٦٠ تعاقد مع احد دور النشر الكبرى لنشر الكتب التي كان يزمع على كتابتها، الا انه لم يصدر عنه لا كتاب واحد بعد مرور فترة طويلة من الزمن، وهو عبارة عن مجموعة من الخطب والمقالات التي كان قد القاها في مناسبات مختلفة، وكلها على نمط واحد يكاد لا يختلف في الشكل والمضمون. وفي بيروت، بعد عودته الى منصبه في الجامعة الاميركية، تعاقد مع دار النهار للنشر لنشر اعماله الكاملة. وعند وفاته لم يكن قد صدر منها الا كتاب واحد بعنوان: "المقدمة: القسم الاول".

كان اصدقاء شارل مالك وتلامذته ينتظرون اليوم الذي سيبدأ فيه بالكتابة والتأليف. الا انه، عدا عن مجموعة الخطب والمقالات باللغة الانكليزية (والتي يجب اعتبارها سياسية واعلامية) لم يكتب الا كتاباً واحداً في الفلسفة، وهو "المقدمة: القسم الاول".

غير انه كتاب غريب وجميل، لا مثيل له بنظري في اصالته بين الكتب العربية الحديثة الا كتابان: كتاب ميخائيل نعيمة "الغربال" (١٩٢٢) وكتاب انطون سعادة "نشوء الامم" (١٩٣٨). يتضمن هذا الكتاب كل الافكار التي سمعت شارل مالك يتحدث فيها طيلة معرفتي الطويلة به، منذ ايام التدريس في الجامعة الاميركية وحتى الثمانينات. إنه في هذه "المقدمة" لا يسجل افكاره ومعتقداته وحسب بل يكشف ايضاً (دون قصد) عن مطامحه (التي لم تتحقق) وعن مخاوفه (لني لا يريد الاعتراف بها) وايضاً عن مشاعر التعالي (التي يحاول اخفاءها). انه يقول لنا ما معناه: ليس هذا الكتاب الا جزء صغير مما املك من علم ومعرفة. اما الباقي فسيأتى عما قريب. صدرت "المقدمة" وهو في الحادية والسبعين من عمره.

كان دائماً يؤجل الامور. كان الحاضر، اللحظة الآنية، مجرد نقطة عبور بالنسبة له. ودائماً ينهي حديثه بالقول: "لارم نجلس جلسة طويلة، طويلة، عن قريب". خلال السنين اجتمعنا به - نحن تلامذته واصدقاؤه - في بيروت (في الجامعة الاميركية) وفي نيويورك (في الامم المتحدة) وفي واشنطن (في السفارة اللبنانية) وفي الربية (في منزله بالقرب من انطلياس) وفي مناسبات عدة مختلفة. كانت كل جلسة تؤجل الى

جلسة قادمة "طويلة، طويلة" سنروي فيها عطشنا. توفي ولم نجلس جلستنا "الطويلة". ولو عاش الف سنة لما كنا جلسناها. عاش حياته هرباً نحو مستقبل وهمي.

تحمّل "المقدمة: القسم الاول" افكاراً ومفاهيم حديثة ليس للعربية المصحى والفكر العربي المعاصر عهداً بها (على غمط الافكار والمفاهيم التي استعملها نعيمة في كتابه النقدي وتلك التي تناولها سعادة في كتابه اسوسيولوجي). انها مكتوبة باللهجة ذاتها التي كان يتحدث فيها الينا: لهجة محبة متواضعة احياناً ووعظية سلطوية احياناً اخرى، لكنها ابوية دائماً.

لماذا اختار ملك تسمية هذا الكتاب بـ "المقدمة" وهو اكثر بكثير من مقدمة، ولماذا "القسم الاول" فقط؟ (هل كان نموذج كتاب هايدجر "الوجود والزمان"، الذي صدر منه "القسم الاول" ولم يصدر القسم الثاني منه اطلاقاً؟).

لست ادري اذا كان هناك قسم ثانٍ للمقدمة، او اذا كانت "الاثار العربية الكاملة" جاهزة بالفعل. انها لم تنشر حتى هذا التاريخ. وما هي هذه الاثار الكاملة التي تعدّها المقدمة في ستة عشر مجلداً؟ (بالاضافة الى المجلدين المخصصين للمقدمة والمجلد المخصص للمراجع). هل هي مجموعة مؤلفاته "المنشورة" و"غير المنشورة" باللغتين العربية والانكليزية؟ ام هل هي مؤلفات جديدة كان ينوي كتابتها؟.

يقول في مقدمة "المقدمة": "ان تعميم الحاضر لاثاري الكاملة باللغة العربية يشمل، بعد المجلدين الاولين، وهما المقدمة، بقسميها، تسعة عشر مجلداً." ويحدد مواضيع هذه المجلدات كالتالي: "اولاً، العلم (مجلد واحد)، ثانياً، الفلسفة (اربعة مجلدات: مدخل تمهيدي، الميتافيزيق والاخلاق، بعض المفكرين القمم في التاريخ، الحرية

والانسان). ثالثاً، السياسة (اربعة مجلدات: الشرق الاوسط، الامم المتحدة، الصراع الايديولوجي العالمي، مجد الغرب وانحطاطه). رابعاً، لبنان (مجلدان: القضية اللبنانية، وثائق أولية). خامساً، الايمان (خمسة مجلدات: في الكتاب المقدس، في الحياة الروحية الشخصية، في الحياة الليتورجية، في الحركة المسكونية، الصراع في المسيح مع الشيطان). بالاضافة الى ذلك، مجلد يحتوي "لوف المراجع" في اللغات العربية والانكليزية والفرنسية والالمانية، "وربما في لغات اخرى" ايضاً.

في "القسم الاول" من المقدمة يعالج مالك ما يدعوه تقديمه "الأولي في الشؤون الاخيرة" ويعلن انه ينوي، بعد ان يشرح اوجه "تطوره الكياني" و"الفلسفة الظهورية" (Phenomenology) ان ينتقل "تباعاً وبشكل تمهيدي محض" الى تفصيل نظريته "الى الرياضيات، والعلوم، والكوزمولوجية، والحلولية، والمثالية"، ثم الى "مراتب الوجود الثاني"، ومشكلة "الانتقال الكياني"، و"المرتبة الاخيرة الصارمة" وهي مرتبة "الخروج الكياني" من "الذات" الى "الغير". ويقول ان هدفه الاول والاخير في كل هذه الكتابات هو: "الحقيقة الحق المعطاة في حد ذاتها، الحقيقة الجبرئية والكلية، الحسية والعقلية، العادية والروحية، الناقصة المحدودة، والكاملة اللا محدودة، المخلوقة والخلاقة الزائلة والباقية".

بعد كل ذلك كان ينوي "التوقف عند بعض المعطيات للدخول فيها الى الصميم". ومن هذه المعطيات "الانسان، الحرية، العقل، الروح، الطبيعة، الخلق، الوجود، الكينونة، التراث، الجذور، التراث العقلاني، التراث الابراهيمي، معنى التاريخ، وحدة التاريخ، غاية الحياة وغاياتها، قَمَم الفكر، العيش في القمم مع أهل القمم، مشكلة الـ"من" والـ"اين"

من لا يعرف شارل مالك قد يظن، عند قراءة لائحة المواضيع التي ينوي معالجتها في "الاثار الكاملة"، انه يمزح او انه يهذي. الا ان هذا هو اسلوبه في الكلام والتعبير. يضع عناوين الافكار ويؤجل بحثها (كالكتب التي نضعها جانباً لنقرأها في عطلة الصيف، ويأتي الصيف ويذهب ولا نقرأ منها الا عناوينها). وتصبح العناوين شعارات، والاسماء نصوص، والنصوص مجرد احتزال لفظي.

كان مالك كما ذكرت في الحادية والسبعين من عمره عندما وضع "المقدمة". ترى، لم يكن يدرك تمام الادراك انه لن يتمكن، حتى ولو قصد، من اتمام هذا المشروع الضخم؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا يحدده بهذه الدقة وبهذه الضخامة؟ "بضعة عشر مجلداً!" (كان ميخائيل نعيمة في السبعين عندما اصدر "سبعون" في ثلاثة مجلدات، لكنه كان قد ألف حتى ذلك الحين فوق العشرين كتاباً). كان مالك ما زال يحلم بتحقيق الصورة التي تمثلها لنفسه وتمثلها له الآخرون: صورة الفيلسوف الكبير ذي الاعمال الفلسفية الكبيرة!

الكتابة والفكر يتطلبان نوعاً من التنسك، من الوحدة (القاتلة احياناً) والعمل الشاق ساعات طويلة ضمن نظام يومي صارم. لكن مالك اختار غمطاً آخر ~~من~~ العيش عندما تحلى عن عمله الجامعي ودخل العمل السياسي، فقضى حياته في السعي وراء المركز والشهرة والثراء الشخصي. قد اكون مخطئاً في قلبي انه اختار هذه الحياة الاخرى. ربما كان اختياره لها ارضاءً شعورياً او ارضاءً لزوجته، او بفعل القيم التي حكمت نشأته الفقر المغمورة، او ربما ظن ان باستطاعته النجاح في التوصل الى "اعلى المراكز" والحصول على المال، والبقاء في الوقت ذاته على ولائه للفكر والفلسفة. هنا، بنظري، تكمن مأساته "الكيانية"

ظل يحلم حياته بكاملها بالفلسفة والقسم الروحية، لكنه عاش حياة رجل الأعمال الليفانتي والسياسي المحترف. وهكذا عندما عاد الى بيروت في الستينات ليعاود التدريس في الجامعة، كان قد فقد المقدرة على الكتابة والفكر المتكامل، على الوحدة والنظام اللذين يتطلبهما الفكر والكتابة. بنى فيلاً فخمة في الرابية (على غرار بناية سفارة لبنان في واشنطن) واستمر في العيش على طريقة الاعيان والشخصيات الكبيرة.

لم تجمعني بشارل مالك صداقة بالمعنى الدقيق. فقد بقيت علاقتي به شبه ابوية. كان دائماً بالنسبة لي "الدكتور مالك"، فلم ادعُ يوماً باسمه الاول كما كان يدعو اصدقاءه. استمرت علاقتنا حتى اواخر الستينات، عندما تغيرت اتجاهاتي الفكرية جذرياً وتخلت عن افكاري ومعتقداتي السابقة ودخلت في عالم الفكر الرفض. لكن العلاقة بيننا رغم ذلك لم تنقطع. وعندما ذهبت استاذاً زائراً الى الجامعة الاميركية سنة ١٩٧٠ - ١٩٧١، لم يتغير موقفه نحوي رغم انه احس بالهوة الفكرية التي اصبحت تفصل بيننا، فأصرّ عندما لم اجد مكباً خاصاً في الجامعة، على تجهيز مكتب لي الى جانب مكتبه في بلس هول. واستمر في دعوتي مع يوسف الخال وغيره من طلابه القدامى الى لقاءات حميمة في منزله في الرابية. ما بعد بيننا بشكل نهائي كانت الحرب الاهلية وموقفه الطائفي وعدائه للفلسطينيين (بعد ان كان اكبر المناصرين للقضية الفلسطينية في الامم المتحدة). لم اره بعد ذلك الا نادراً. بعد عودتي من سنة قضيتها في بيروت سنة (١٩٧٤ - ١٩٧٥)، كان يحضر الى واشنطن بين الفترة والاخرى، لكنه لم يعد يتصل بي. رأيت آخر مرة في ندي الكوزموس حيث كان يتزل اثناء وجوده في العاصمة الاميركية، وذلك قبل وفاته بحوالي سنتين. كان شعره ما زال منقوشاً الا انه كان قد اصبح شائباً، وتجمّد وجهه وفقد قوته وجماله.

توفي شارل مالك في الرابعة، وفاته صعبة اليمّة بعد مرض اقعده
وأدى إلى بتر ساقيه إلى ما فوق الركبة بسبب مرض السكري، ففقد في
آخر أيامه ما تبقى له من سيطرة على حياته.

أعطون سعادته

نشوء الأمم

والكتاب الأول

بيروت

1938

أعطون سعادته

الغزبان

مجموعة مقالات مدنية

مايبرغ

مطبوع

المطبعة العثمانية

شارل مالك
الأنارالغربية الكاملة

المقدمة

القسم الأول

المجلد الأول



دار النشر

الطبعة الأولى من «الغزبان» قدمها
مبحائل نعيمة إلى صديقه الدكتور
فليب حقي، أستاذ التاريخ في جامعة
برنستون ومنحها بدوره إلى مكتبة
الجامعة الأميركية في بيروت.

أنس سعادته كتابه «نشوء الأمم» في
سجن القلعة في بيروت سنة ١٩٣٨
ونقحه بعد عودته إلى بيروت سنة
١٩٤٧ وصدر في دمشق سنة ١٩٥١ في
«طبعة منقحة بقلم المؤلف».

«المقدمة» الكتاب الوحيد الذي صدر
من «الأنار العربية الكاملة».

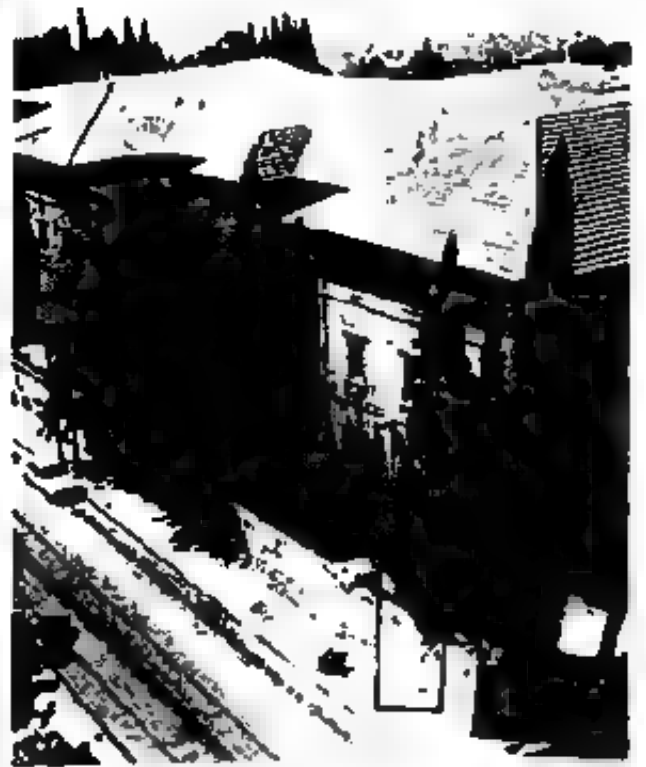


كوليج هول، الجامعة الأميركية.

شارل مالك سنة ١٩٤٥.



فك هود وشارع بلس





في السنوات الاولى من حياتي الجامعية كان ميخائيل نعيمة بمنزلة معلمي الروحي، إذ بدأ تغير في اتجاهاتي الفكرية بتأثير شارل مالك والتيارات الفكرية الجديدة التي تعرضت لها في الجامعة. في مطلع عطلة صيف ١٩٤٥، بعد انتهاء صف السوفمور، قررت كتابة مختصر لما كنت اؤمن به من افكار ومعتقدات، وذلك لعرضه على ميخائيل نعيمة في الزيارة التي كنا قررنا انا وفؤاد نجار القيام بها اليه في بسكتا مطلع اكتوبر قبل بدء الفصل الدراسي. واخترت عنوان ما كنت نوي كتابته قبل شروعي بالبحث: "نظرتي الى الحياة".

حال وصولي الى عكا، وبعد زيارة سريعة قمت بها الى يافا، نصبت خيمة فوق سطح بيت جدي. وضعت فيها كتيبي واوراقي وكرسين، احدهم كرسي شاطيء للتمدد والاستراحة، والآخر للكتابة الى طاولة صغيرة ركزتها في مدخل الخيمة لاتيكن من رؤية البحر اثناء الكتابة. كان يومي يبدأ في الثامنة صباحاً، حين يذهب

Refina

كامل واكرم الى عملهما في الريفائيري (مصفاة النفط في حيفا)، فاصعد الى الخيمة اطالع واكتب وافكر الى أن يحين موعد الغداء مع جدي. ثم أذهب الى غرفتي واستلقي على فراشي المحاذي للنافذة المطلّة على البحر واطالع قليلاً، وأحياناً، عندما يحافيني النوم، اجلس في الفراش انظر الى البحر الفضي واتمتع بدغدغة النسيم المثقل برائحة الملح على وجهي. وأحياناً أرى مركباً شراعياً على مسافة قصيرة من الشاطئ الصخري متجهاً نحو ميناء عكا او في طريقه الى صور او صيدا، وقد عقب الريح في شراعه وهو يشق الماء.

في الثالثة بعد الظهر استمع الى نشرة اخبار لندن على راديو جدتي ثم اصعد الى خيمتي لأراجع ما كتبت قبل الظهر، وأقرأ قليلاً الى ان اسمع صفير كامل من الشارع مُعلنًا عودته من الشغل، فأهرع اليه وتتوجه مباشرة الى قهوة حبيبو الواقعة بالقرب من سينما اللبابيدي حيث نجلس لساعة او ساعتين نحتسي الكازوز ونتحدث الى من نتقيه من صيادي السمك ممن تعرفنا اليهم اثناء الصيد ونحن فوق الصخور. وعند المغيب، حين يخفّ البحر وهب نسيم البحر، نتمشي بمحاذاة الشاطئ، ونأكل كعكاً بسمسم مع الصعتر، ونراقب الفتيات اللواتي كنا نعرفهن عن بعد، وتبادل الحديث المتقطع معهن. كن يتمشين امامنا ويسترقن النظر الينا بين الفترة والاخرى ليتأكدن اننا ما زلنا نسير وراءهن، فيتصاحكن. وعندما نصل الى نهاية الشارع عند الثكنة العسكرية، حيث يقل عدد المتمشين، يقول كامل لـ "صديقه" بينهن ان هناك فيلاً جديداً للوريل وهاردي يعرض ذلك المساء في سينما اللبابيدي. فتهايمن الفتيات في ما بينهن وتقول صديقه: "يمكن ان نحضره، سنرى." ونفترق في حبور وفرح.

في ذلك الوقت كان المستقبل هو المهيمن على حياتنا. كنا نعيش الحاضر، او اكثره، بانتظار المستقبل الذي ستتحقق فيه احلامنا. كان الحاضر فترة استراحة بين المراهقة التي نسعى الى تجاوزها باسرع ما أمكن و"الرجولة" التي مثلت لنا بداية الحقيقة. هكذا هدرنا تلك المرحلة الجميلة من حياتنا دون ان نعيشها حقاً. اننا لا ندرك ذلك الا بعد ان يمضي الزمن ويغيب الحاضر. وهكذا في المرحلة الاخيرة من العمر لا يبقى من الحاضر الا هذا الماضي الذي نحن اليه. النهاية، عندما نصلها، دائماً تسترجع البداية. عند ذلك ندرك ان المستقبل الذي انتظرناه يوماً بعد يوم طيلة الحياة ليس الا هذا الماضي الذي استهلكناه بانتظار المستقبل.

لكن الغريب في الامر ان هذا الادراك لا يدوم، اذ لا تلبث هذه الافكار ان تتبدد، فنرجع الى العيش اليومي وغربته، ويعود المستقبل يمتد أمامنا. وعندما يخطر الموت على بالنا نشيح بوجهنا عنه، ولا نتعرف اليه، ونتناساه. وإن جأهنا، فهو حدث يصيب الآخرين فقط.

احاول ان اتمسك بصحوة هذا الادراك، وان اصدق بوجه الموت واتعرف على ملامحه. فأقول لنفسي كل صباح: "عش يومك بوعي. لا تنجرف في الروتين، لا تغمض عينيك. لا تهدر الوقت." اذكر نفسي بأن "الوعي" هو ان نرى ما حولنا ومن حولنا دون حاجز او قناع. ان نكون حاضرين لانفسنا وللعالم وللآخرين. ان نجعل العالم والآخرين حاضرين معنا ولنا.

كلما اسافر في رحلة بعيدة اتوق الى من تركت من احبائي،
والوم نفسي على تقصيري في اظهار حبي لهم عندما اعود اليهم،
وكل مرة اتعهد بأن اغير مسلكي لدى رجوعي اليهم. وبعد ان
ارجع، أنغمس في نمط عيشي القديم، وانجرف في الروتين اليومي
المعهود.

اول من امس جاء لزيارتي صديقي ألن الذي اعرفه منذ
الخمسينات عندما كان طالباً في احد اولى الصفوف التي درستها في
جامعة جورجتاون. انه الآن مريض بسرطان الرئة. نصحه الطبيب
ان لا يبقى في البيت وان يجتمع قدر ما استطاع باصدقائه. تلقن في
الصباح يسألني اذا كنت موجوداً في البيت. كان يعرف اني اقضي
فترة قبل الظهر من كل يوم في عملي الخاص ولا اجتمع بأحد. لكنه
يعرف اني سأرحب به، فدعوته الى الحضور. قلت في نفسي ساراه
لبضع دقائق ثم اعود الى عملي. كان قد فقد معظم شعر رأسه
واصبح وجهه بلون الشمع الأصفر بسبب العلاج الكيماوي الذي
اعطني له. جلس يحدثني عن الماضي ويذكرني باحداث جرت لنا عبر
السنين. تحدث عن بيروت والجامعة الاميركية حيث مارس التدريس
لبضع سنوات وعن اشخاص تعرف اليهم هناك وبخاصة عن علاقته
بأمرأة لبنانية احبها واحبته عن بعد ولم يبح لها بحبه. قال هذه المرة
الاولى التي يتحدث فيها الى احد عن هذه الامور. كنت استمع اليه
وانا استعيد في ذهني المهام التي كان علي القيام بها في ذلك الصباح،
وافكر في الموضوع الذي كنت اكتب فيه. وفجأة انتهت الى ما كان
يقوله ألن. انه يراجع احداث حياته امامي. يحدثني عن امور لم
يتحدث بها الى انسان من قبل. يفضي اليّ بما يحفظه في قلبه من
اسرار. كيف تنغلّق حياتنا على نفسها فنصبح خارجها وخارج كل
حياة اخرى مهما كانت قريبة الينا.

ما يدهشني وما لا أستطيع تفسيره، هو هذا الغياب الذي يؤثف تفاصيل حياتي اليومية، هذا الضياع والسعي المستمر الى هذا الامر او ذاك. الايام تمضي دون ان أعيها. من بين جميع اصدقائي كان هناك شخص واحد يخرج عن هذه القاعدة، او خيل اليّ انه يخرج عنها، وهو نبيل عوض. توفي ها في واشنطن السنة الماضية. عرفته في صف الفرشمن، وكان رغم ذكائه كسولاً لا يهتم بالدراسة، فيحصل على ادنى العلامات في كل المواد. تركزت اهتماماته في الجامعة على المسرح والسينما ومحاولة اختراع ما لم يكن هو يعرف كيفيته او هدف استعماله. كان بطبيعته ذا نزعة دينية. وكثيراً ما شاهدته يقرأ الأناجيل لبضع دقائق ثم يضعها جانباً، ويجلس صامتاً. صدف مرة ان قرأ مجموعة قصص لتولستوي اهداها اليه احد اصدقائه بمناسبة عيد ميلاده، فأصبح تولستوي احد ابطاله الروحيين، ومن خلاله مال الى فلسفة غاندي، واصبحت نظرية اللاعنف معتقده في الحياة. تفهمت شخصية نبيل بعد عدة سنوات عندما قرأت رواية دوستويفسكي الشهيرة *The Idiot*، فقد كان نبيل مثل ميشكين، بطل الرواية، "ابلهاً" من منظور الذين لا يعرفون من الحياة الا الركض وراء النجاح والربح. بقي نبيل في الجامعة بعد ان تخرجنا، ولست ادري ان حاز الشهادة الجامعية. دخل مع اخيه في مشروع تجاري ادى خلال بضع سنوات الى افلاس العائلة، وعاد الى بيروت وبقي دون عمل الى ان حصل على تأشيرة دخول الى الولايات المتحدة. التقيت به في واشنطن في اواخر الستينات وكان على عادته لا يحمل هماً، مبتسماً لا يكثر بما سيجلبه الغد. كان مدمناً على احتساء الخمرة، الامر الذي افسد كليته.

ومن حسن حظ نبيل ان اسامه قدري، صديقنا المشترك من ايام الجامعة، كان يعمل في السفارة العراقية في واشنطن آنذاك، فوجد له عملاً في مكتب الملحق التجاري في السفارة نفسها. وخلال السنوات اللاحقة درج على الاتصال بي تلفونياً بين الفينة والاخرى فنتناول الغداء سوية، ويحدثني عن احواله وعن آخر اخباره. في السنوات الاخيرة حنّ الى العودة الى سوريا والى مسقطه اللاذقية بالذات، وذلك بعدما اصابه السرطان في مثاته. اجريت له عدة عمليات جراحية لكن دون نتيجة. ثم اصببت كليتيه فتوقفت عن العمل، ما اضطره الى تطهير الدم بواسطة دياლისيز ثلاث مرات في الاسبوع. كان يذهب الى الكلينيك القريب من بيته ويترقب ساعات مع المرضى الفقراء الى ان يحين دوره. وكان تطهير الدم يستغرق ساعتين، يتبعه شعور بالدوار والغثيان يستمر طوال الليل. خلال هذه الفترة لم اسمعه مرة يتذمر من الآلام التي كان يعانيها. ولما عرضت عليه بعض العون المالي رفض بحجة ان تأمينه الصحي يكفي لتسديد تكاليف علاجه.

اتصل بي ذات يوم واخبرني انه نقل في الليلة الماضية الى مستشفى جورج واشنطن وان عملية اخرى ستجرى له في مثاته. زرته بعد العملية الجراحية. فتح عينيه لدى دخولي الغرفة وابتسم فرحاً عندما رأي. سألتني بصوت خافت كدت لا اسمعه عن الاخبار وعما يجري. تحدثنا قليلاً ثم تركته على ان ازوره في اليوم التالي. في الايام التالية تحسنت صحته وصار ينهض من الفراش ويتمشى في ممرات المستشفى. طلب اليّ ان اتوسط لدى طبيبه (صديقي الدكتور سعيد الكرمي) ليستبدل احدى كليتيه المعطلتين بكلىة سليمة. بحثت الموضوع مع سعيد فأخبرني ان وضع نبيل الصحي تدهور الى درجة اصبح فيه اجراء اية عملية جراحية له امراً مستحيلاً، وقال انه لا

يتوقع له ان يعيش اكثر من شهرين او ثلاثة.
 زرت نبيل قبل وفاته بايام قليلة. وجدته فرحاً يتمشى في
 غرفته. سألته عن سبب فرحه. قال: "لا تؤاخذني اذا قلت لك
 السبب الحقيقي. لقد "خرت" هذا الصباح."
 كان لا يستطيع ان يتغوط الا نادراً بسبب عطل كليتيه،
 فاصبح اليوم الذي يتمكن فيه من "الخروج" مليئاً بالفرح.
 رن التلفزيون في الصباح الباكر وسمعت صوتاً لا اعلمه،
 وعرفت بالحال ان نبيل قد توفي. اقيم قداس لراحة نفسه في اليوم
 ذاته في كنيسة مار بطرس الكاثوليكية في واشنطن. حتى ذلك الوقت
 لم أكن ادري ان نبيل اعتنق الدين الكاثوليكي اثناء وجوده في
 المستشفى. كان عدد الذين حضروا القداس سبعة اشخاص لا
 اعرف منهم احداً. كان بينهم قريب لنيل هاجر منذ امد طويل واقام
 في ولاية فرجينيا، وهو الذي اتصل بي ذلك الصباح. جلسنا في
 زاوية من قاعة الكنيسة الواسعة التي تتسع لعدة مئات، واستمعنا الى
 القس الاميركي يوثس نبيل. لم يذكر اسمه مرة واحدة. تحدث عن
 "اخونا الغائب" بكلام عام ينطبق على اي كاثوليكي توفي في احضان
 الكنيسة. كان يقرأ نصاً وضع خصيصاً لهذه المناسبات، ولم يكن
 لديه أية فكرة عمّن هو نبيل. بعد القداس وري نبيل في التراب
 وحيداً في ضريح لا اعرف أين يقع.

٤

وصلنا بسكنتا قبل المغيب. سألنا سائق السيارة اين نريد
 النزول. قال له فؤاد: "في الساحة" كانت الساحة مقفرة تماماً.

سرنا صعوداً في الطريق الرملية نحو بيت ميخائيل نعيمة الذي ما زلت اذكر موقعه. كان بيتاً كبيراً مبنياً من الحجر الابيض ومسقوفاً بالقرميد الاحمر على نمط معظم بيوت بسكتنا آنذاك، ويقع في مكان مرتفع من البلدة يطل على وادي الجهاجم من جهة وعلى جبل صنين من جهة اخرى.

فتحت لنا الباب ابنة اخيه مي. كانت رغم صغر سنها ربة بينه والمشرقة على كل ما يتعلق بحياته اليومية (بعد سنوات تزوجت من احد شباب بسكتنا، لكن زواجها لم يطل وعادت الى رعاية عمها وبقيت الى جانبه حتى وفاته سنة ١٩٨٧).

قدمت لنا القهوة في غرفة الجلوس. وما هي الا بضعة دقائق حتى دخل علينا ميخائيل نعيمة. لم يتغير منذ لقائي الاول به في ١٩٤٢. بدا في الاربعينات من العمر، وكان يقترب من الستين. نحيف البنية، سريع الحركة، عيناه مليتان بالضوء. ينظر اليك نظرة هادئة تجعلك تأمن اليه مباشرة. عرفته على فؤاد، وسألني عن اوضاعي، واخبرته عن القطعة التي كتبها خصيصاً له. فقال بسرور: "غداً نقرأها سوياً".

في بسكتنا تشرق الشمس متأخرة من وراء صنين. استيقظنا متأخرين وتناولنا الفطور الذي جلبته لنا مي في صينية حافلة باللبن والجبن ومرى السفرجل والصعتر والزيت مع الخبز المرقوق.

قرأت لميخائيل نعيمة "نظري الى الحياة" بكاملها (حوالي عشرين صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة). جلس صامناً دون حراك طيلة قراءتي لساعة. سرّاً بما كتبه حول الفلسفة الشرقية التي تقول بوحدة الذات والعالم والتي استمديتها من قراءات سريعة ودون التعمق بها. لكنه لم يعلق على المقاطع التي بدأت تسري في تفكيري وبخاصة تلك التي تناولت فيها باختصار معتقداتي السياسية التي

أخذت بالتحول منذ دخولي الجامعة.

كان ميخائيل نعيمة في تلك المرحلة من حياته قد اعتنق النظرية البوذية بشكل كلي واتخذها عقيدة يبشر بها في كتاباته وخطبه. عند عودته من المهجر سنة ١٩٣٢ بدا واضحاً من الخطاب التي القاها في مناسبات مختلفة في لبنان وسوريا وفلسطين (ونشرت في "زاد المعاد") ان الشاعر المبدع صاحب قصيدة "أخي" (١٩١٧) والناقد الادبي صاحب "الغربال" (١٩٣٣) قد تحول الى مفكر متصوف لا يدعو الى التغيير الاجتماعي والتجديد الفكري بل الى "التغلب على الجسد" والى "خلاص الروح".

امس اعدت قراءة "زاد المعاد" لنعيمة، وتوقفت عند خطابين القى احدهما في الجامعة الاميركية في ٢١ شباط ١٩٣٣ بدعوة من جمعية اتحاد الطلبة، والثانية في حفلة التخرج في مدرسة الفرندز للصبيان في رام الله بتاريخ ٥ تموز ١٩٣٥ السنة، التي التحقت بها بمدرسة الفرندز للبنات. لم اقرأ ميخائيل نعيمة منذ تخرجي في حزيران ١٩٤٧. نسيت اناقة اسلوبه وقوة تعبيره في الكتابة. تأتي جملة كاملة منسجمة راسمة صوراً في اطار شعري خلّاب. لكن ما الذي كان يتوقع ميخائيل نعيمة ان يتفهمه شباب في مطلع حياتهم الجامعية من خطاب افتتحه بهذه الكلمات:

"كأنى بكم، عندما كلفتموني الخطابة، حسبتم ان عندي لكم عطية. لا. ليس في مستطاعي، ولا في مستطاع اي انسان، ان يعطيكم شيئاً لان لكم الكون وكل ما فيه. فكما ان في بذرة الارض الصغيرة تنطوي اسرار الارزة الكبيرة التي ولدتها، هكذا انطوت فيكم كل اعجاز القدرة التي بعثكم من الوجود الى اللاوجود. فانتم سمرديون كالقدرة التي من رحمها انبعثتم. وفيكم كل اسرارها. اذن حذار من الذين ينادونكم من اعالي السطوح: "ها نحن مثقلون

بالمهدايا، تعالوا وأخذوا منا!" حذار من هؤلاء لانهم انبياء كذبة. وليس لديهم من عطايا سوى اوهامهم."

وماذا كان يتوقع ان يكون اثر خطابه في طلاب ومعلمي لفرندز وضيوفهم من اعيان رام الله والبيرة؟

"سلوا خيطاً في ثوب من الاثواب التي على اجسادكم... ما هو ومن اين هو؟ تتبعوه بالخيال، اذا امكنكم، في كل ادوار حياته حتى الدقيقة الحاضرة. أو لا ترون ان كل عناصر الارض والسماء قد تكاثفت مع كل قوى الانسان الجسدية والروحية لتجعله خيطاً في ثوبكم؟ نعم... سلوا ثيابكم ما هي ومن اين هي؟ تجدون انكم تلبسون الناس وحياة الناس، والكون وحياة الكون، في كل ما تلبسون..."

هناك شبه كبير بين روحانية ميخائيل نعيمة وميتافيزيقية شارل مالك، بالرغم من اختلافهما في المنهج والتعبير. كان لدور الخيال في فكر ميخائيل نعيمة الدور نفسه الذي نهض عليه الايمان في فلسفة شارل مالك، فجمعت بينهما نظرة غيبية واحدة للانسان والكون. لكن في حين وظف شارل مالك نظريته المثالية لخدمة اغراض شخصية وسياسية، حافظ ميخائيل نعيمة على موقفه المتشكك وقضى حياته في السعي الى خلاصه الشخصي في عقيدته الصوفية.



في الفترة التي قمنا فيها بزيارته، كان ميخائيل نعيمة يعمل على كتابة ما اعتبره اهم مؤلفاته وهو "كتاب مرداد" الذي وضعه بالانكليزية بعنوان "The Book of Mirdad" ثم ترجمه بنفسه الى

العربية. وهذا الكتاب هو على نمط كتاب "النبي" الذي وضعه
جبران خليل جبران باللغة الانكليزية ايضاً واصبح احد اوسع الكتب
انتشاراً في العالم. وقد اراد ميخائيل نعيمة كتبه ان يكون خلاصة
فلسفته في الانسان والوجود.

وضع نعيمة الكتاب على شكل قصّة المعلم الهادي مرداد،
وتلامذته السبعة المقيمون معه في كهف منعزل في رأس جبل عال
حيث يتحدث مرداد اليهم في مواضيع مختلفة كالتي تحدث فيها
المصطفى في "النبي" والتي عاجلها نيتشه في "هكذا تكلم زردشت".
ومن هذه المواضيع: "في الكلمة المبدعة"، "في الثالوث الاقدس
والتوازن الكامل"، "في البوائق والغرايل"، "في الخادم والمخدوم"،
"في الدينونة ويوم الدين"، "في المنطق والايمان"، "في الارادة الكلية
المقدسة".

والكتاب في سبعة وثلاثين فصلاً، يبدأ بالتعريف بمرداد وكتابه
(كما دونه احد اتباعه)، وينتهي بخطاب يوجهه مرداد (ميخائيل
نعيمة) الى الشرية جمعاء ويقول فيه:

"اقول لكم ثانية: انتم الطوفان، وانتم السفينة، انتم الربان.
واما السفينة فجسدكم، واما الربان فإيمانكم. وهذه كلها تتخللها
ارادتكم. ومن فوق هذه كلها يهيم فهمكم. فاهتموا لسفينتكم كيما
تكون متينة وصالحة لمصادمة الامواج.. ثم اهتموا لربانكم كيما
يكون رزينا وغني الخبرة باسرار الملاحاة.. ولكن الاهم من ذلك
وهذا ان تبحثوا عن ينابيع الطوفان وان تدريبوا ارادتكم على تجفيفها
واحداً بعد واحد. واذ ذك تهدا ثورة الطوفان وريداً رويداً
تتلاشى." (٣٢٠ - ٣٢١).

والمشهد الاخير في الكتاب يعكس المشهد ذاته في كتاب
"النبي"، حيث يودع المعلم (جبران، نعيمة) اتباعه:

”عندما وقف المعلم عن الكلام سرت في السامعين حركة اشبه ما تكون بحفيف الاوراق. فكأنهم تنفسوا وكانوا قد خنقوا انفسهم وهم يصغون الى المعلم.“

”وقبل ان ينحدر المعلم عن درجات المذبح دعا السبعة اليه وطلب ان يأتوه بالقيثار. واذ جاؤوا به اخذ يرثم معهم نشيد الفلك الجديدة. وسرعان ما التقط الجمهور اللحن، ومن الوف الافواه تعالى القرار امواجاً جارفة الى السماء: ربانك الله، سيري، فلك مرداد.“ (ص ٣٢٨).

٦

لم اقرأ ”مرداد“ الا بعد مضي عدة سنوات على صدوره. لم يُنشر في اميركا كما توقع ميخائيل نعيمة فاضطر الى نشره بالانكليزية والعربية في بيروت. وعندما قرأته تذكرت حديثنا قبل عودتنا من بسكتنا الى بيروت في اليوم التالي. كنا نتمشى عند العروب في الطريق المؤدي الى صنين. سألتنا ميخائيل نعيمة عن خططنا للمستقبل بعد التخرج من الجامعة. قال له فؤاد انه ينوي العمل في السعودية. وقلت اني لا ادري بعد ما الذي سأفعله. ثم اردف نعيمة بصوت عادي، كأنه يتكلم عرضاً، بأنه يفكر بانشاء ”معتزل“ يشارك فيه عدد محدود من الاشخاص تفتحت قلوبهم على الحقيقة وقرروا السير في طريق الخلاص. وسأل عن رأينا في الموضوع. لا اذكر الجواب الذي تقدم به كل منا، سوى قول فؤاد انها فكرة جميلة لكن غير عملية، كما اذكر نظرة نعيمة اليه. بقي صامتاً لفترة ثم انتقلنا الى موضوع آخر.

ادركت ما كان يرمي نعيمة اليه وانا اقرأ "مرداد". كان يعرض علينا "ترك العالم" والانضمام الى "معتزل" يقيمه في اعالي صنين كما فعل مرداد و"رفاق الفلك" في معتزلهم الكهفي في "جبل عال". هل كان ميخائيل نعيمة يحلم بأن يكون هو مرداد "نبياً هادياً للبشر"؟

لم ينشيء ميخائيل نعيمة "المعتزل" الذي كان يحلم به. مع تقدمه في السن انتقل الى بيروت اتقاء من برد بسكتنا القارص. عندما يدفأ الطقس كان يصعد الى بسكتنا، فيقضي فيها معظم فصل الصيف. لم التقى به بعد تلك الزيارة (١٩٤٥) الا مرتين وبشكل عابر. كانت الاولى في نادي خريجي الجامعة الاميركية لدى عودتي الى لبنان في مطلع الخمسينات وكنت اتناول الفطور في قاعة الطعام واذا برجل يقف امام مائدتي محيياً. في بادئ الامر لم اتعرف عليه. قال بصوته العميق: "كيف حال الدكتور هشام؟"

نهضت مسلماً بحرارة ودعوته الى الجلوس وتحدثنا قليلاً الى ان جاء التاكسي الذي كان قد طلبه.

اما المرة الثانية فكانت في بسكتنا في صيف ١٩٧٠. كان يوم احد وكنت برفقة يوسف الخل وادونيس وتوفيق صايغ وفؤاد رفقة وكنا في طريقنا الى مقهى نبع صنين. اقترح يوسف ان نتوقف لزيارة ميخائيل نعيمة، وكان من عاداته في ذلك الحين ان ينتقل في فصل الصيف الى "الشخروب"، ليقبم في دارة صغيرة مبنية على النمط القروي القديم وتقع الى جانب الطريق المؤدي الى صنين. وجدناه جالساً لوحده في ظل عريشة تغطي ساحة الدار التي تطل مباشرة على وادي الجماجم، يحسني فتجاناً من القهوة ويدخن سيجارة اميركية الصنع. كان قد تجاوز الثمانين وما زال على صحته وقوته. رحب

بنا، وسلم عليّ بحرارة. تناولنا القهوة معه، ثم أكملنا طريقنا الى المقهى.

توفي ميخائيل نعيمة في انطلياس، احدى ضواحي بيروت الشرقية، حيث اقام عند اندلاع الحرب الاهلية. كان في التاسعة والتسعين من عمره وما زال يتمتع بكامل وعيه. اخبرني ابن اخيه نديم نعيمة وكان معه ساعة وفاته، انه كان سعيداً بملاؤه الامل والايمان حتى آخر لحظة من حياته، وانه قبل وفاته بساعة دخن سيجارة "كنت" مع فنجان قهوة.



بين بسنتين بسكتا خيال
فؤاد وهو يلتقط الصورة



النقط هذا المنظر لبسكتا من شرفة ميخائيل نعيمة..



فؤاد وأنا مع ميخائيل نعيمة لي بسكتا

سنة ١٩٤٥.

八



كانت عودة انطون سعادة من الارجتين في مارس ١٩٤٧ حدثاً فاصلاً في حياتي الجامعية. قبل وصوله ببضعة اشهر كنت قد انتهيت من كتابة بحث حول الحزب السوري القومي الاجتماعي قدّمته في مادة العلوم السياسية التي كان يحاضر فيها شارل عيساوي، وقررت على اثره الانضمام الى الحزب. كنت في تلك المرحلة ابحث عن عقيدة الفُ حياتي حولها، عن ذات تتجاوز "الانا" الفردية، وعن هوية اجتماعية تضفي على حياتي وجوداً حقيقياً محسوساً. فوجدتها في عقيدة الحزب السوري القومي الاجتماعي.

ترددت في مغادرة البلاد لتكملة دراساتي العليا في الولايات المتحدة عقب رجوع سعادة من منفاه القسري، وبسببه ايضا قطعت دراستي للدكتوراه في شيكاغو في بداية ١٩٤٩، وعدت الى بيروت للعمل في الحزب.

كتب اليّ بعد ذهابي الى اميركا ملمحاً الى رغبته في ان اعود

الى لبنان: "لست ادري طول المدة المزمع ان تقضيها في بلاد
 الفخفخة السياسية والميعان الفردي. أمل ان لا تطول كثيراً، وان
 اراك قريباً في الوطن ونجالد معنا" (رسالة من بيروت في
 ١٩٤٨/٦/٢٢). وفي رسالة اخرى تسلمتها منه في نهاية صيف
 ١٩٤٨، شجعتني على وضع الدراسة جانباً او تأجيلها، مما وضع حداً
 لترددي في العودة: "مع اني كنت اود ان تكمل درس الدكتوراة من
 اجل قيمة المركز العلمي والرتبة بالنظر لمفهوم البيئة ونظر المؤسسات
 التهذيبية، فاني افضل اكتفاءك من التخصص في العموميات بما
 وصلت اليه لتصرف الى التخصص في فلسفتنا وقيمنا والعمل في
 ثقافتنا. فمجتمعنا القومي الاجتماعي في اشد الحاجة الى المتخصصين
 في عقيدته الذين ينصرفون الى توطيد اسس النهضة وتقوية ثقته
 بنفسه ومصيره. وان وجودك بقربي سيعينني على تصريف امور كثيرة
 تزدحم وتراكم حولي، وليسوا كثر الذين استطيع تكليفهم النظر في
 بعضها" (رسالة من بيروت في ١٩٤٨/٨/٢٥).

منذ لقائنا الاول (بعد وصوله بيضعة ايام) غمرني انطون
 سعادة بعطف واهتمام كبيرين، ربما لاني كنت ادرس الفلسفة (وكان
 يهوى الفلسفة والتاريخ بخاصة)، ربما لانني كنت فلسطينياً ومن
 عائلة مسلمة، او لانه توسم في موهبة خاصة تفيد الحزب. اذكر
 جلستنا الاولى معه انا وفؤاد نجار في عين عنوب في ٤ نيسان
 ١٩٤٧، وصادف يوم عيد ميلادي العشرين، حين تمسينا في الطريق
 العام المطل على بيروت، وحرسه الخاص يسير خلفنا. جلسنا تحت
 شجرة توت الى جانب الطريق، ثم عدنا الى البيت الذي كان يقيم
 فيه وشربنا الشاي عند غروب الشمس. كان صوته منخفضاً ولفظه
 واضح البرات، واسلوبه في الكلام يلفت النظر بخلوه من
 الكليشيهات والتعابير المألوفة. يتكلم اللغة الفصحى بطلاقة (ابتناه

صفية واليسار كانتا لا تحسان الا الفصحى عند وصولهما الى بيروت في ربيع ١٩٤٧) رستعملها مع اللغة العامية للتأثير في سامعيه (كما فعل جمال عبد الناصر على نطاق واسع فيما بعد). ورغم ان عربيته الفصحى كانت أصيلة بتعابيرها، الا انها لم تكن "عربية" بالمعنى المؤلف. كانت "لغة" جديدة، فذة، لا في مضمونها وحسب بل ايضاً في مفرداتها وفي اسلوب تركيبها كانت لغة عربية حديثة.

حدثنا في تلك الجلسة عن افكار وموضوعات تراوحت بين الآني والتاريخي، بين القومي والحضاري، بين العادي واللغوي. متنقلاً بسهولة من تاريخ بابل وآشور الى الوضع الراهن في العراق وسورية، من احرب العالمية التي انتهت الى الصراع العقائدي بين الكتلة الغربية والكتلة الشرقية، الى الدين والفلسفة والادب والسياسة. (في الستين اللاحقين عالج عدداً من هذه الافكار والموضوعات في خطب ومقالات نشرت في "كل شيء" و"الشمس" و"الهضة" و"النظام الجديد"، وهي جزء لا يتجزأ من اعماله الكاملة التي جمعها وحققها بدر الحاج).

كان التأثير الذي تركه سعادة في نفسي طاغياً الى درجة اني لم اعد ارى لنفسي مستقبلاً خارج الحزب ولا عملاً الا داخله. زال التردد الذي انحدث في نفسي انتقالي من منطق القومية العربية الى مفهوم القومية السورية، وتقبلت الحل الجدلي الذي طرحه انطون سعادة على الشكل التالي: "القوميات" القطرية المتعددة (اللبنانية، العراقية، الفلسطينية الخ) نقيضها القومية العربية الواحدة (من الخليج الى المحيط) الحل الجدلي اذن هو القوميات المحددة، اي قومية الاقطار المركزية الاربع في العالم العربي: الهلال الخصيب، "العربة"، وادي النيل، المغرب. اشبع هذا الطرح رغبتي في التحديد الواضح. وزال التناقض الذي كان يشدد عليه المنظرون

القوميون العرب في حلقاتنا الفكرية بين ما هو قومي عربي وبين كل موقف آخر، واتضح في ذهني مفاهيم القومية والامة والوطن ودور التاريخ في تكوين البنى الاجتماعية والسياسية وتطورها عبر الزمان والمكان.

لم يراودني شعور بالذنب بأنني تخليت عن "هويتي" العربية. فسورية امة عربية تجمعها بمصر والجزيرة العربية والمغرب لعة واحدة وحضارة واحدة وتاريخ واحد ومصير واحد. صرت ادرك ان نظرية القومية العربية، بشموليتها الفكرية واصرارها على الوحدة الكلية، انما قامت على العاطفة اكثر منها على العقل والمنطق والواقع الموضوعي، فاتخذت الطابع ذاته للايديولوجية الدينية التي كان يحرم نقدها ويمنع طرح اي تساؤل حولها.

٢

لم يكن في الحزب الى حين عودة سعادة من هو مؤملاً لمعالجة الامور النظرية والايديولوجية الا فايز صابغ. كان يحضر للمهاجستير في الفلسفة، ويقوم، قبل عودة انطون سعادة، بمهمة عميد الاذاعة والثقافة في الحزب. تعرفت على فايز صابغ عند دخولي قسم الفلسفة، وكان يدرس حصة في الفصل اثناء العام الدراسي. درست معه مادتي "فلسفة ارسطو" و"الفلسفة الوجودية"، وكان يعتبر نفسه "وجودياً" Existentialist. شجعنا على قراءة كيركجارد، وبيرداييف، دون ان يذكر هايدجر او سارتر (لا اظن انه اطلع على كتاباتهما)، ودفعنا باتجاه النزعة الوجودية (المؤمنة) التي كان شارل مالك يدعو اليها. وتوطدت الصداقة بيننا بعد انضمامي الى الحزب.

صرت ارافقه الى الاجتماعات الحزبية واستمع الى خطبه التي يلقيها ارتجالاً فيلهب مشاعر مستمعيه سلاغته وسلاسة لفته. وكانت اهتماماته فلسفية اكثر منها سياسية، ومعالجاتها القضايا السياسية والاجتماعية من منطلق يعارض ضمناً منطلق العقيدة القومية. وعندما عاد انطون سعادة الى لبنان واطلع على المقالات التي نشرها فايز في النشرة الثقافية للحزب وجه اليه نقداً عنيفاً لموقفه الوجودي "الفردى". وتوقع فايز ان اقف الى جانبه وان ادافع عنه، غير اني لم افعل ذلك، الامر الذي لم يغفره لي حتى وفاته سنة ١٩٨٠.

ما زلت اقرأ كيركجارد مرة في السنة على الاقل عندما اتناوله في مادة "تاريخ الفكر الاوروبي في القرن التاسع عشر" التي ادرسها في كل فصل خريف. عندما اقرأ كيركجارد استعيد تلك الايام والاحاديث الطويلة التي كنا نتداولها حول كيركجارد والفلسفة الوجودية في مشاويرنا على الكورنيش وفي جلساتنا في مقاهي الروشة، واشعر بالحرارة التي كانت تسري في جسدي والحماس الذي يطغى عليّ في تلك الساعات. افتقد فايز وكيركجارد على السواء، كأنهما صديقان عزيزان اختطفتهما مني يد المنون.

بعد سفرنا الى الولايات المتحدة سوية في اواخر سنة ١٩٤٧ لتكملة دراستنا العليا، فايز في جامعة جورجيتاون وانا في جامعة شيكاغو، بقينا على صداقتنا. الا ان هذه الصداقة تحولت، بالنسبة لفايز، من صداقة حميمة الى علاقة غابت عنها الثقة. من ناحيتي حاولت الحفاظ على شعوري نحوه، رغم طرده من الحزب. لكن الصلة انقطعت بيننا بعد ذهابي الى شيكاغو ولم اتصل به ثانية حتى مطلع يوليو ١٩٤٩ عند عودتي الى الولايات المتحدة بعد اعدام انطون سعادة. كنت في حالة تقارب الانهيار النفسي، واصر عليّ ان احضر الى واشنطن حالاً. فأخذت القطار من شيكاغو ووصلت الى

واشنطن بعد ثلاثين ساعة من السفر، ووجدته ينتظرنني في المحطة. اقممت معه شهراً، الى ان استرجعت قوتي واتزاني الداخلي، وعدت الى شيكاغو في بداية الفصل الدراسي صحيحاً معافى بفضل عطفه وتسامحه.

٣

اول ما فعله انطون سعادة بعد عودته الى لبنان هو اعادة تنظيم الحزب، بدءاً بمحاسبة القوميين الذين خرجوا على مبادئ الحزب وعقيدته، مثل فايز صايغ وبيرسف الخال، والذين خرجوا عليه سياسياً بالتركيز على "الكيان اللبناني" والتخلي عن مفهوم "سورية" و"الهلال الخصيب"، مثل نعمة تابت وغسان تويني. وفي الوقت ذاته حرص على استرجاع الوجوه القديمة التي ابعدت عن الحزب اثناء غيابه، مثل الضابط عساف كرم الذي قاد الثورة القومية الاجتماعية الاولى في تموز ١٩٤٩، ومحمد يوسف حمود الاديب والشاعر اللبناني، كما حرص على ترقية الكوادر في الحزب، مثلي ومثل ليب زؤيا وفؤاد نجار وبجورج عطيه.

منذ اليوم الاول لوصوله اثار انطون سعادة مخاوف الحكومة اللبنانية، وعلى رأسها رياض الصلح في اول عهد شارة الخوري، والتي ما لبثت ان اصدرت مذكرة توقيف بحقه. كان السبب المباشر لذلك، الخطاب الذي القاه سعادة في منزل نعمة تابت في الغبيري، والذي اعلن فيه عن رفضه الضمني للكيان اللبناني واصراره على وحدة الوطن السوري.

وبعد بضعة اشهر على وصوله اصدر سعادة، وكان ما زال

ملاحقاً، نصاً جديداً لـ "مبادئ الحزب القومي الاجتماعي وغايته"،
وَرَدَ فيه تحديدٌ جديد للوطن السوري شمل بالاضافة الى سورية
الطبيعية العراق وجزيرة قبرص، ولتعبير الجديد، "الهلل السوري
الخصيب ونجمته جزيرة قبرص". وفي تلك الفترة بقي سعادة في
الجل واقام مركزاً متنقلاً للحزب وأنشأ حرساً مسلحاً لحمايته، واعاد
استعمال الشعارات "السورية" التي كان نعمة ثابت قد استبدلها
بشعارات "لبنانية" وامر بعادة اصدار مجلة الحزب الرسمية وعليها
شعار الزوبعة.

ومع ان سعادة وافق على اشتراك الحزب في الانتخابات
اللبنانية التي أجريت في اواخر ١٩٤٧، الا انه ادرك تمام الادراك ان
النظام اللبناني سيمنع العمل السياسي عن الحزب طالما بقي على
تحديه للحكومة اللبنانية القائمة. ولم تمض بضعة اسابيع حتى تكتلت
كل القوى السياسية من اقصى اليمين الى اقصى اليسار، من مسيحية
واسلامية، حزبية عروبية ولبنانية وشيوعية، في وجه انطون سعادة
والحزب القومي الاجتماعي، ودخلت في حلف ضمني ضدهما.

٤

عندما رأيت سعادة عن قرب لأول مرة، كان يتطابق في شكله
وملبسه وحركاته مع الصورة التي تكونت في مخيلتي عن الشخصية
الاسبانية "اللاتينية". اذكر مرة في تلك الاسابيع الاولى لتعرفي اليه
انه كان يدخن سيجاراً في ضهور الشوير. قدم لي سيجاراً من جيبه
وقال: "هذا سيجار فخم". حتى ذلك الحين لم اكن قد رأيت
سيجاراً في حياتي (تذكرت ذلك السيجار عند زيارتي الى كوبا في

ربيع سنة ١٩٧٧ عندما قُدم اليّ سيجار مثله في الحجم والنوع).
 كان يصر كما يفعل الاسبان، على استعمال ضمير الجمع في مخاطبة
 ضيوفه، وبخاصة السيدات، ويحذو حذو الاسبان في تأديهم المفرط
 في المناسبات الاجتماعية. لذا كان لطيفاً متواضعاً الى ابعد حد في
 معاملة الكبار والصغار، وبشكل خاص في معاملة الذين قاموا
 بحراسته وخدمته. لكنه كان في لوقت ذاته بعيداً عن كل ما يحيط
 به. يبدو وحيداً حتى في وسط الحشود التي كانت تتجمع لاستقباله
 أينما ذهب. عرفته معرفة حميمة، لكن لم اعرف داخلية كما كنت
 اعرف اصدقائي المقربين اليّ، وبقي بعيداً عني بعده عن الآخرين.
 كنت في بداية العشرينات من عمري وكان في منتصف الاربعينات
 من عمره. استعيد ذكره الآن من وراء الفاصل الزمني الذي حوّل
 من الاب او الاخ الكبير الذي كان بالنسبة لي الى شخص غاب وهو
 في سن ابني او اخي الاصغر.



عندما سمعته للمرة الاولى يتكلم لعربية خيّل اليّ انه يتحدث
 بلكنة اجنبية، مثل اجنبي أتقن العربية واصبح يحسنها اكثر من
 أهلها. كانت عربيته محكمة، كل جملة يلفظها تحمل معنى واضحاً
 ووظيفة محددة (مما اضيف عليها صبغة نص اجنبي). ذكرني اسلوبه
 في الكتابة باسلوب النهضويين (الشدياق، الشميل، زيدان). ومثال
 على ذلك هذا المقطع، من بيان اول آذار لسنة ١٩٣٧، الذي
 يستعمل فيه التعابير والمركبات اللغوية التي كانت سارية في اواخر
 القرن الماضي: "يمر لبنان اليوم في عهد من عهود الطغيان لم يعرف

له مثيلاً من قبل ولا سمعت به اذن بشر. وما طما سبل الطغيان الا على الخانعين فطارت نفوسهم شعاعاً، وما اهاب سوى اكبر الجبناء فانخلعت قلوبهم فزعاً". الا ان اسلوبه تحول في السنوات اللاحقة الى اسلوب دقيق انيق يصعب مقارنته باسلوب اي من معاصريه. ومع انه كان يحسن عدداً من اللغات (الاسبانية والالمانية والفرنسية والانكليزية) تجنب استعمال الكلمات او التعابير الاجنبية في حديثه. واذا اراد استعمال تعبير لا مرادف له في العربية لم يتردد في ابتكار مفهوم جديد يستعمله دون تفسير او مقدمات ("نيورجعية"، "انترنسيونية"، "اميركانيا"، "الدفلماسية") ومصرأ على مخاطبة انتيه صفية واليسار بالعربية الفصحى (كانت الكبرى آنذاك دون السادسة من العمر). كان يكره التمثل بالاجانب وعاداتهم، ويشدد على استنباط البدائل لكل ما هو اجنبي في ممارساته الاجتماعية. فمثلاً، عند تقديم الشاي الى صيوفه يمتنع عن تقديم الكاتو والحلويات الاوروبية (كما كان يفعل الناس "المودرن" في بيروت في ذلك الحين) ويستعوض عنه بالبقلاوة او الكنافة او نوع اخر من انواع الحلو الوطني ولا يقدم من المأكولات في بيته الا المأكولات الوطنية (رغم امتناعه شخصياً عن معظمها لاسباب صحية).

مثل لي انطون سعادة الرجل الحديث بالمعنى الكامل للكلمة. منذ ذلك الوقت برز امامي الفرق الفاصل بين الحداثة الابوية المتخلفة (التي كان من صفاتها اعتبار كل ما هو اوروبي "حديث" ومتفوق وكل ما هو وطني تقليدي ومتخلف) وبين الحداثة الذاتية المبدعة التي تقف ازاء الغرب موقف المساواة والتحدي، وتقف ازاء التراث موقف النقد والابداع.

كانت حادثة انطون سعادة غير الحداثة الليفانتينية التي مثلها لنا اساتذتنا في الجامعة الاميركية، وبخاصة شارل مالك، والتي كنا نقف ازاءها بخشوع واحترام، والتي دعا انطون سعادة الى محاربتها والتغلب عليها واستبدالها بحدثة قومية مستقلة. لم تكن الحداثة بالنسبة له تلك التي نستورد من الغرب بل تلك التي تنبع من داخل المجتمع وتراثه الحي. وكان اعتماده جارماً بان المجتمع السوري قادر على الخلق والتجديد دون اللجوء الى النماذج الاجنبية، وان في النفس السورية "كل علم وفلسفة وفن". كانت الحضارة الغربية بالنسبة له واحدة من بين الحضارات العالمية، وليست، رغم هيمنتها المادية والعسكرية، الحضارة القدوة او المثال (كما كانت بالنسبة لشارل مالك).

كان في تربيته وثقافته ابن القرن التاسع عشر، عصر التنوير، وتأثر تأثيراً عميقاً بالفلسفة الالمانية وبخاصة بالمدرسة التاريخية الالمانية ونظرتها الى نشوء الامم وتطور الحضارة الانسانية. مات قبل ان يشاهد نهاية فكر القرن التاسع عشر وبداية الفكر النقدي ونظريات التعددية والاختلاف التي تهيمن الآن. ترى لو عاش، ما كان موقفه ازاء القيم السائدة اليوم، "الحريات الديمقراطية"، "حقوق الانسان"، "التعددية السياسية"، "الذات الفردية"، "البيئة"، لا كقيم ونظريات فكرية وحسب، بل كأهداف عملية اصبحت تحكم انواع الصراع الاجتماعي والنشاطات السياسية والثقافية الجارية في العالم، بما فيه عالمنا العربي؟

اعدت اليوم قراءة مقاطع من "نشوء الامم"، كتابه الفذ الذي وضعه في سجن البرمل في بيروت وهو في الحادية والثلاثين. قدمه

"الى رجال النهضة القومية الجسارة ونسائها العاملين لحياة سورية ومجدها." (اي قائد سياسي في ذلك الحين كان يتحدث عن "النساء العاملات" في حزب سياسي!) كان كتاباً لم تر اللغة العربية مثله في حينه، جديد في موضوعه واسلوبه وفي تناوله النظرة التاريخية الاثروبولوجية لتطور المجتمع لفهم نشوء الامم. استمد مراجعه من بحوث ومؤلفات في العلوم الانسانية والجغرافيا والاجتماع والتاريخ، في اللغات الالمانية والفرنسية والانكليزية، بالاضافة الى المراجع العربية الكلاسيكية وبخاصة ابن خلدون. في هذا الكتاب تمثلت روح الحداثة والتنوير في تفكير انطون سعادة بأجلى مظاهرها، وبخاصة في علمانيته وايمانه بالعقل والعلوم الحديثة ووحدانية التقدم البشري.

لست ادري ما كان وقع هذا الكتاب في الاوساط الفكرية خارج الحزب، اذ لم اعثر على اية مراجعة نقدية له في الصحف والمجلات الصادرة في بيروت في تلك الفترة، ولا اعلم عن اية دراسة صدرت حوله. اما داخل الحزب فلا اظن انه لاقى تفهماً عميقاً، فلم يصدر حوله اي بحث مستقل، فبقي هذا العمل الرائد خارج الوعي الفكري السائد داخل الحزب وحارجه حتى يومنا هذا. في محاضراته الاولى في الندوة الثقافية في ١٩٤٨ لخص سعادة معنى الحداثة بهذه المقولة: "النظر الاصلي ينبثق منا نحن بالنظر لحقيقتنا". اي برفض التبعية الفكرية (ما سماه: "الفكر المضطرب") والاصرار على اقامة الفكر الاصيل المستقل. وقال:

"الفكر المضطرب يبتديء بالتأثر بأحد المفكرين ثم ينتقل الى آخر ثم يحصر نفسه ضمن نطاق بعض الافكار ولا يعود يخرج، ويبدأ بمناقضة كل من له رأي آخر فتتسأ حالة الفسيفساء التي تتقارب قطعها ولكنها لا تتحد."

"ان مثل هذا الفكر لا يمكنه ان يحقق شيئاً. الانسان الذي لا يزال على سذاجة الفطرة له شخصيته واستقلال نفسي وجوهر اعظم من شخص وضع نفسه اداة تسير بافكار حقيقته. ان الافكار المعتقدة اقتباساً من الخارج لا تحرك عوامل النفسية الصحيحة." "المحاضرات العشر في الندوة الثقافية". وهذا ما جسده في حياته وفي موته.

من هنا تشديد انطون سعادته على اولوية العامل الذاتي في عملية التغير الاجتماعي، بدءاً بفصل الدين عن الدولة والغاء الطائفية، الى تحديد الهوية القومية وتثبيت ثقافتها العلمانية واحياء تراثها القومي. ولهذا ايضاً اعتبر مجرد الاستقلال السياسي غير كاف لاطلاق قوى الامة وتحقيق اهدافها العليا، واعتبر تحطيم التبعية الحضارية للغرب (على العكس من شارل مالك) شرطاً اساسياً لقيام حضارة قومية جديدة.

٧

بعد تخرجي من الجامعة في حزيران ١٩٤٧، قررت قضاء الصيف في بيروت والعمل في الحزب، رغم معارضة اهلي ولأول مرة منذ طفولتي لم أقض جزءاً من عطلة الصيف في عكا (لم يدر بخلدي آنذاك ان عكا كانت ستسقط في ايدي اليهود خلال اشهر قليلة واني لن اراها ثانية!)

كان انطون سعادته ما زال متوارياً عن الانظار، لكنه كان ينتقل بحرية تامة في الجبل يرافقه حرسه المسلح. اقيم المخيم القومي ذلك الصيف في ضهور الشوير واستأجر الحزب بيتاً لانطون سعادة

قريباً من العرزال ليقيم فيه عند قدومه الى بلدته وليستقبل فيه الزائرين والرفقاء ولعقد اجتماعات مجلس العمدة.

يقع المخيم على تلة تشرف على بيروت والبحر من جهة، وعلى الحشارة وبسكنتا وصنين من جهة اخرى. اشتركت انا وفؤاد في خيمة صغيرة، واقام فايز صايغ في خيمة متاخمة. كان فايز ينهض باكراً ويشرع في الكتابة الى ان يحين موعد الفطور، فيضع اوراقه في حقيبة صغيرة ويقفل عليها، ثم يصعد في سيارة اجرة ويتجه الى بيروت ولا يعود حتى الغروب. وبعد بضعة اسابيع ظهرت نتيجة نشاطاته على شكل كتاب صغير بعنوان "من الاعماق" اتخذ فيه موقفاً واضحاً يتعاطف مع الفلسفة الوجودية رغم تعارضها مع العقيدة القومية الاجتماعية كما شرحها انطون سعادة. تلك كانت بداية خروج فايز على الحزب وعقيدته.

في تلك الفترة اعتاد انطون سعادة ان يستدعيني لرؤيته كلما حضر الى ضهور الشوير، فكنت اقضي معه النهار بطولة واحياناً ابقى في المساء لحضور الاجتماعات التي يعقدها مع المسؤولين الحزبيين وتستمر حتى ساعة متأخرة من الليل.

بعد الظهر كان يحب السير في الحرس القريب الذي اقام فيه عززاله في اوائل الثلاثينات. كنا نخرج من الباب الخلفي كي لا يرانا الحرس، ونتمشى قليلاً ونجلس تحت شجرة صنوبر بجانب العرزال المطل على وادي الجماجم ومن وراءه بسكنتا وصنين. كنت استنح الفرصة في هذه المناسبات لا طرح عليه اسئلة في مواضيع مختلفة، منها ما كان فلسفياً ومنها ما تناول الشؤون السياسية الجارية. وكان يسره ذلك فيتكلم باسهاب وتفصيل حول المواضيع النظرية التي كانت تتناول بخاصة التاريخ والاجتماع. واني لا آسف على

شيء بقدر اسفي على عدم تسجيل اقواله بعد تلك الجلسات. لكني ما زلت اذكر الكثير منها.

رسل يطلبني ذات يوم، وكان قد عاد لتوه من رحلة سرية قام بها الى عمان للاجتماع بالملك عبدالله. وجدته في حالة انباض ويريد ان يفرج عن ضيق صدره. لم يخبرني تفاصيل ما جرى في عمان، لكني ادركت ان نتائج الزيارة لم تكن كما كان يرغب ان تكون. منذ عودته الى لبنان كان يحاول ايجاد مخرج من الحملة التي شنّها ضده النظام اللبناني لاجباره على الرضوخ لارادة الطغمة الحاكمة وشروط اللعبة السياسية القائمة في لبنان آنذاك. وكان باستطاعته لو قبل بأداء الدور الذي اراده له النظام القائم (بصفته ارثوذكسياً يتزعم اوسع الاحزاب انتشاراً في لبنان) ان يصل الى اعلى المناصب في الدولة، وان يصح ثرياً غير انه لم يكن في هذا الوارد. كان في عالم، والطغمة المهيمنة في عالم آخر. لا هو تفهم النظام الابوي الطائفي على حقيقته الشرسة، ولا الحكم والوجهاء الطائفيون ادركوا من هو هذا الرجل وما الذي كان يريده.

قال لي ونحن نسير في الطريق المنحدر نحو الدير: "لا مهرب من الثورة. لقد فرضوها علينا. اهم شيء التزود بالسلاح."

لكن من اين يأتي بالسلاح والحزب في ازمة مالية خانقة؟
 "لست ادري. لكن ان لم نتدبر امرنا خلال مدة قصيرة يُقضى علينا. انهم يبيتون لنا شراً كبيراً."

كنا نسير الآن بالقرب من غابة الصنوبر والنبعان اللذان ذكرهما في مذكراته ("٣ مارس ١٩٢٩: اشعر بحنين الى بلادي، الى الوادي، الى غابة الصنوبر، الى النبع"). توقفنا عند النبع ذاته وشربنا من مائه ثم تابعنا طريقنا نحو الدير الى ان بدأت الظلال تطول والظلام يجيم. في طريق العودة، قبل ان نصل الى البيت،

رأينا عدداً من الحرس يهرول نحونا. وصل خبر من بيروت ان فرقة من الجندرمة كانت في طريقها الى ضهور الشوير. قال رئيس الحرس: "السيارة جاهزة، حضرة الزعيم." لم تكن هذه هي المرة الاولى التي تأتي فيها قوات الدرك الى ضهور الشوير بحثاً عن انطون سعادة. كنا نعرف بمجيئها قبل ان تصل، ودائماً هناك متسع من الوقت لاختذ الاجراءات اللازمة للانتقال الى مكان قريب معد حسب خطة مسبقة.

قال وهو يصعد السيارة: "سنكمل حديثنا عند عودتي."

٨

لم يعرف انطون سعادة ملذات الحياة كما يعرفها الانسان العادي. كانت حياته مشدودة بخيط لا مرئي الى هدف واحد استحوذ كل وجوده واهتماماته. كل طموح ورغبة احس بها، كل امية رمى الى تحقيقها، وكل علاقة اقامها، ارتبطت بهذا الهدف الواحد. حياته لم تكن ملكه. المال والعيش المريح والمركز المرموق لم يكن يعني له شيئاً. عاش فقيراً ومات فقيراً دون ان يدري ذلك. كان ثرياً لا يملك الا رؤياه.

وكان وحيداً، لا صديق له بالمعنى المعروف، لا لأن الذين احاطوا به في الحزب كانوا دون مستواه الفكري والثقافي وحسب، بل لأنه عاش على صعيد مختلف من الحياة. كان هناك اشخاص، من بين الذين انضموا الى الحزب احبهم حباً جماً، كفخري معلوف. لكن علاقته بهم لم تكن علاقة "شخصية"، بل علاقة رفقاء كرسوا حياتهم مثله للصراع في سبيل قضية واحدة. يمكن القول ان ايمانه

بالامة والحزب ابتلع حياته فاصبحت حياته مجرد اداة وظفها لخدمة الامة والحزب.

عندما قال: "ان الدماء التي تجري في عروقنا، هي ملك الامة متى طلبتها وجدتها"، كان يعني ما قاله حرفياً. من هنا نتفهم رباطة الجأش الخارقة التي جابه فيها حكم الاعداء الذي اصدرته المحكمة العليا اللبنانية بحقه ونفذته في ٨ تموز ١٩٤٩.

لم يكن سعادة يملك حياة خاصة ليفقدها. فقد نسي نفسه، كما قال، لتحميا سورية.

٩

لا يمحي يوم مغادرتي الى اميركا من ذاكرتي وصلنا الى مطار اللد عند المغيب. كان يوماً شديداً الرودة في منتصف كانون الاول ١٩٤٧. الطرق خالية الا من المصفحات البريطانية، وسيارة يوسف الـ "همبر" السيارة المدنية الوحيدة في الطريق بين القدس واللد كان يوسف يوصلنا، اخاه فايز وانا، الى المطار لركوب الطائرة. امس، كنا في القدس، في اونيل كلاريدج بالقطمون الذي يديره فريد عطايا. بعد الظهر ذهبنا جوزف سلامه وانا لمشاهدة فيلم "حبيب العمر" لفريد الاطرش وسامية جمال في سينما ركس. كانت القاعة تمتلئ بالمشاهدين، والحياة تسير كمعادتها كأن شيئاً لم يحدث في فلسطين.

في المطار الصغير المقفر يقول لنا الموظف في مكتب شركة الـ TWA بأن طائرتنا قد تأخرت وان موعد الاقلاع قد تأجل الى صباح اليوم التالي. نعود الى اللد ونغضي الليلة في فندق صغير بعد ان

يودعنا يوسف ويعود الى القدس. كانت تلك اخر ليلة امضيها في فلسطين.

في صباح اليوم التالي نستقل الطائرة. من نافذتها القي آخر نظرة على يافا. اراها من ناحية البحر، من فوق الميناء، واتبين العجمي، والكنيسة الارثوذكسية البيضاء الى جوار بيتنا. يخيل اليّ اني المح بيتنا في قمة تل العرقتنجي. وما هي الا لحظات حتي تغيب يافا عن ناظري، ولا اعود اري الا الشاطئ الابيض الطويل.



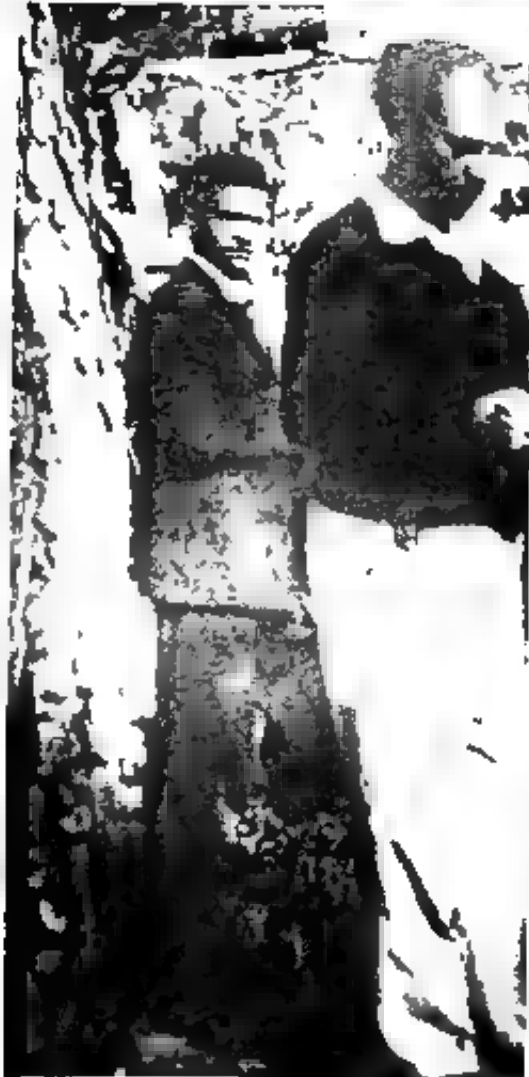
صورته في العشرينات من عمره

التقط هذه الصورة المصور نوفل في

دمشق سنة ١٩٤٨.

الشباب أنطون سماعة في شهور الثوير سنة ١٩٣٦

او ١٩٣٧.



في مهرجان بيت مري أكتوبر ١٩٤٧. الى يساره
تجلس ابته صفية وزوجته. ابته الاخرى اليسار لمحاول
الحرب.





آخر احتفال لأول آذار (١٩٤٩) اقف الى جانب سعادته
بعد اللقاء كلمتي. الى اليسار عبدالله سعادة وخلفنا ابراهيم
يموت وفريد صباغ.

اتمّش مع سعادة في مشوار على الكورنيش لي ابريل
١٩٤٩. حارسه علي ورامنا.

مع قيادة الحزب الجديدة في دمشق في اوائل
الخمسينات. من اليسار: سامي خوري، جورج عبد
المسيح، عصام محاري، عبدالله حسن. جلوساً ادونيس
وعائلة.





♦ ♦ ولد الدكتور سام شرابي في
 يافا، وأمضى مراحل من حياته في بيت جده
 في عكا. دراسته الأولى في رام الله في مدرسة
 الفرنسيز. ثم إلى الآي. سي. في بيروت.
 تخرج من الجامعة الأميركية في بيروت
 ١٩٤٧، وهو استاذ تاريخ الفكر الأوروبي
 الحديث في جامعة جورجنتون في واشنطن.
 له مؤلفات عدة بالانكليزية والعربية،
 منها: "المثقفون العرب والغرب"، "مقدمات
 لدراسة المجتمع العربي"، "النظام الأبوي"،
 "النقد الحضاري للمجتمع العربي في القرن
 العشرين"، و"الجمهر والرماد: ذكريات
 مثقف عربي"، الذي لاقى الصدى الكبير
 والاهتمام الواسع في انحاء العالم العربي.
 "صور الماضي" هو سيرة ذاتية للمعقدين
 الاولين من حياة الدكتور شرابي على ارض
 الوطن. وهذا الكتاب هو بين كتبه الأقرب
 إلى جلوة "الجمهر والرماد". ♦ ♦

دارقلسن

